

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

التَّكْوِينُ إِلَهِيٌّ لِلْإِنْسَانِ الرَّسَالِي



مُحَمَّدُ رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

موسى عليه السلام

التكوين الإلهي للإنسان الرسالي

قراءة تأملية في الخوف، والاصطفاء، والمواجهة،
والعبور، وبناء الأمة

رداد السلامي

إهداء

إلى كل قلبٍ أثقله الخوف،

وإلى كل روحٍ أرادت أن تحمل معنىً أكبر من ضعفها،

وإلى كل من ظنَّ أن البحر قد أغلق الطريق نهائياً،

وإلى كل من عرف أن أخطر الطغاة ليسوا فقط أولئك الذين يعلنون
في الأرض، بل أيضاً أولئك الذين يتركون في النفوس بقاياهم
الثقيلة،

أهدي هذا الكتاب؛ رجاءً أن نقرأ موسى عليه السلام لا بوصفه قصة
نجاةٍ ماضية فحسب، بل بوصفه طريقاً ربانياً في بناء الإنسان الذي
يثبت لله، ويصبر، ويعبر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

لماذا موسى؟

ليس عجيبيًا أن يكون موسى عليه السلام أكثر الأنبياء حضورًا في القرآن، وليس ذلك لمجرد كثرة أحداث قصته، ولا لضخامة ما جرى فيها من صداماتٍ ومعجزاتٍ وتحولاتٍ، وإنما لأن موسى في البناء القرآني ليس نبيًا فحسب، بل هو نموذج الإنسان الذي يُصاغ على عين العناية الإلهية ليحمل أثقل الرسالات في أكثر البيئات قسوةً واضطرابًا وافتتانًا؛ فهو النبي الذي وُلد في سياق مذابح، وربّاه الله في قلب الخطر، ونقله من الضعف إلى الاصطفاء، ومن الخوف إلى الخطاب، ومن الحيرة إلى الوحي، ومن الانكسار البشري إلى الثبات الرسالي، ثم أراه كيف أن الطريق إلى إقامة الحق ليس نزهةً وجدانيةً ولا اندفاعاً عاطفيةً، بل بناءً طويل، ومكابدةً ممتدة، وصبرٌ على عناد الطغاة، وصبرٌ أشدّ على تقلب الجماعة التي جئت لإنقاذها.

إن في موسى عليه السلام شيئاً يخص كل إنسان حيٍّ؛ لأنك لا تقرأه فتقرأ نبيًا بعيدًا عنك، بل تقرأ نفسك حين تخاف، ونفسك حين تُكَلِّف بما تظن أنك لا تطيق، ونفسك حين ترى الباطل متضخمًا، ونفسك حين تظن أن موازين الأرض قد أغلقت أبوابها في وجه الحق، ثم يجيئك القرآن ليقول لك من خلال موسى: إن الله إذا أراد أن يُخرج نوره من قلب الظلام، فإنه لا يبحث عن الظروف المريحة، بل يصنع من قلب الابتلاء نفسه طريقًا إلى التمكين.

ولهذا فإن قصة موسى ليست قصة نجاه فردية، بل قصة هندسة إلهية للإنسان الرسالي؛ تبدأ قبل أن يعي نفسه، يوم أُلقي في اليمّ طفلاً لا يملك من أمره شيئاً، وتنتهي وهو يقود أمةً تتربى بين الوعد والامتحان، بين النعمة والجحود، بين الآية والقسوة، بين النداء الإلهي وهشاشة النفس البشرية.

فكأن القرآن يريد أن يقول: إن من أراد أن يفهم كيف يُنشئ الله الرجال الذين تتغير بهم الموازين، فليُنظر إلى موسى؛ لا لينظر إلى القوة حين اكتملت فقط، بل لينظر إلى كيف ابتدأت، وكيف رُبيت، وكيف تعثرت، وكيف نُقّيت، وكيف حُمّلت، وكيف صبرت، وكيف مضت.

وموسى عليه السلام من هذه الجهة نبيٌّ فريد في شدة إنسانيته الظاهرة في القرآن؛ فهو يغضب، ويحزن، ويخاف، ويتزقّب، ويستعين، ويعتذر، ويسأل، ويدعو، ويطلب المعونة، ويُظهر افتقاره، ويعيش ثقل المسؤولية بكل جوارحه. وليس في ذلك ما ينقص من جلال النبوة، بل فيه من تمامها ما يكشف أن القرآن لا يقدّم الأنبياء ككائناتٍ بعيدةٍ عن طينة الإنسان، بل يقدّمهم بوصفهم أعلى صور الإنسان حين يهذبُه الوحي، ويقوده الله، ويصطفيه لحمل الأمانة.

ولذلك فإن موسى ليس صورةً أسطوريةً للبطولة، بل صورةٌ قرآنيةٌ للبطولة المؤمنة: بطولَةٌ تعرف ضعفها، ولذلك تتصل بربها؛ وتشعر بثقل الطريق، ولذلك لا تستغني عن العون؛ وتواجه الجبروت، لكنها لا تتكى على ذاتها، بل على وعد الله.

ومن هنا، فإن هذا الكتاب لا يريد أن يكرر ما هو مشهور من أحداث قصة موسى عليه السلام، بل يريد أن يدخل إلى البنية الداخلية التي تتشكل منها

القصة: كيف يبني الله عبده قبل أن يرسله؟ وكيف يصنع من الخوف طاقةً تعلق بالله؟ وكيف يحول الضعف إلى أهلية؟ وكيف تكون المواجهة مع فرعون في حقيقتها مواجهةً بين مركزين للوجود: مركز يقول {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}، ومركز يقول {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}. وكيف تكون أزمة بني إسرائيل بعد النجاة جزءاً من فهم الرسالة، لا ملحقاً بها؛ لأن إسقاط الطاغية أيسر من بناء الإنسان الذي لا يعود إلى صناعة طاغية جديد في داخله.

إن موسى عليه السلام ليس نبيّ الصدام مع الاستبداد فقط، بل هو نبيّ العبور؛ العبور من الخوف إلى السكينة، ومن العجز إلى الاستناد، ومن التشتت إلى الرسالة، ومن الذل إلى العبودية لله وحده، ومن الانفعال إلى التكوين، ومن ردّ الفعل إلى حمل المنهج.

ولذلك فإن التأمل في قصته ليس ترفاً معرفياً، بل ضرورة لكل من يريد أن يفهم سنن الله في التربية، وفي الاصطفاء، وفي إعداد الدعاة، وفي ابتلاء الجماعات، وفي حقيقة النصر، وفي أن الطريق إلى الأرض الموعودة لا يقطعه قومٌ لم يتحرروا بعدُ من عبودية الخوف والشهوة والعجلة والحنين إلى الذل القديم.

إن موسى عليه السلام يعلمنا أن الله قد يخبئ أعظم صنائعه في أكثر اللحظات التباساً، وأن اليمّ الذي ظننته باب الفقد قد يكون أول أبواب الحفظ، وأن القصر الذي نشأ فيه الطغيان قد يتحول بقدر الله إلى موضع تربية خصمه، وأن المنفى الذي يبدو خروجاً من المشهد قد يكون المدرسة التي تُعدك للعودة إليه

بصورةٍ أخرى، وأن النار التي ذهبت لتقتبس منها دفناً في الليل قد تعود منها
بوحىٍ يدفى العالم.

وهذا هو سر عظمة موسى في القرآن: أنه ليس فقط رجلَ معجزة، بل رجلُ
تكوين؛ وليس فقط صاحبَ رسالة، بل صاحبُ تربيةٍ إلهيةٍ طويلة؛ وليس فقط
منقذاً لقومه من الاستعباد السياسي، بل شاهداً على أن تحرير الإنسان أعمق
من كسر السلاسل الخارجية، إذ قد يخرج الناس من بحر الاستضعاف، لكن
تبقى في نفوسهم أمواجٌ أخرى لا تهدأ إلا بمنهج الله.

ومن هنا يبدأ هذا الكتاب: من السؤال الكبير الذي يغفل عنه كثيرون:

كيف صنع الله موسى قبل أن يواجه فرعون؟

لأن الرسائل العظيمة لا تبدأ ساعة التكليف فقط، بل تبدأ من لحظات بعيدة،
يوم يربّي الله عبده في مواضع لا يفهم سرّها إلا بعد أن يكتمل المشهد.

الفصل الأول

موسى قبل الرسالة: كيف يصنع الله حملة الأمانة في رحم الخوف؟

حين نقرأ مطالع قصة موسى عليه السلام في القرآن، فإن أول ما يلفتنا ليس مشهد المواجهة مع فرعون، بل مشهد الطفل المستضعف، في زمنٍ صارت فيه السلطة تتغذى على دم الأطفال، وصار البطش سياسةً، وصار الخوف من المستقبل مبررًا للقتل في الحاضر. قال تعالى:

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}.

هذه الآية لا تصف حاكمًا ظالمًا فقط، بل تصف منطق الطغيان: العلو، ثم التفريق، ثم الاستضعاف، ثم التحكم في التناسل والحياة والموت، ثم إعادة تشكيل المجتمع إلى فئاتٍ لا تلتقي، حتى لا تقوم له مقاومة.

فالطغيان لا يبدأ بالقتل، بل يبدأ بإفساد ميزان الوجود: أن يرى الإنسان نفسه فوق الحد الذي جعله الله له، فإذا استعلى لم يعد يرى الناس عبادًا لله، بل موادَّ لإرادته، وجموعًا تُدار، وخريطة تُقسّم، وأعمارًا تُستهلك في تثبيت عرشه.

وفي قلب هذا المشهد المرعب يولد موسى. وهنا تبدأ أولى الإشارات العظيمة: أن الله إذا أراد أمرًا لم ينتظر صفاء البيئة، بل قد يخلق بذرة الخلاص في أقصى ساعات الاختناق. فكأن القرآن يعلم المؤمن من البداية ألا يحاكم

المستقبل بمعطيات اللحظة وحدها؛ لأن أعين البشر ترى سطوة فرعون، أما الوحي فيرى طفلاً صغيراً سيكون هلاك هذا الجبار على يديه بإذن الله.

ثم تأتي الآية العجيبة: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

هنا ينبغي أن نقف طويلاً؛ لأن ظاهر المعنى واضح: أمرها الله أن ترضعه، فإذا خافت عليه من بطش فرعون ألقته في اليم، لكن وراء هذا الظاهر سرٌّ تربويٌّ عظيم: إن الله قد يطلب منك في لحظة الخوف ما يبدو في العقل المجرد أكثر إثارةً للخوف، لا ليزيدك اضطراباً، بل لينقلك من تدبيرك المحدود إلى حفظه غير المحدود. فالأم بطبعها تحتمي بالضم، بالإخفاء، بالتشبث، بالإمساك، لكن الله جعل نجاة موسى في صورة تخليّة ظاهرية، ليعلمنا أن التعلق الحقيقي ليس بما في اليد، بل بمن بيده كل شيء.

إن إلقاء موسى في اليم ليس مجرد حدثٍ دراميٍّ، بل هو إعلانٌ مبكر أن هذا الطفل لن يُربّى وفق قوانين الاعتماد العاديّ على الأسباب فقط، بل سيُربّى من أول يومٍ على أن عين الله إذا تولّت عبداً صنعت له من مواطن الهلاك منافذ نجاة، ومن موارد الخوف جسور عبور.

ولذلك كان الأمر للأم مصحوباً بنهيين ووعدين: {وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي}، ثم {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}. فالله لم يعطها تهدئةً وجدانيةً مجردة، بل أعطاها ربطاً بين السكينة والوعد؛ لأن القلب لا يثبت حق الثبات إلا إذا استند إلى خبرٍ من الله.

وهنا تظهر قاعدة من أعمق قواعد التكوين الإيماني: أن الله لا يكتفي في تربية أوليائه بأن ينجيهم، بل يجعل نجاتهم نفسها درسًا في التوحيد. فلم يُنَجِّ موسى بأن أخفاه في زاوية بيت، بل أنجاه بأن ألقاه في اليم، ثم ساقه إلى بيت فرعون نفسه. كأن الله يقول للبشر جميعًا: أنا لا أحتاج إلى أن أبعد عبدي عن موضع الخطر فقط، بل أستطيع أن أحفظه في قلب الخطر ذاته، وأن أجعل المكان الذي ظننتموه أخطر الأمكنة جزءًا من خطة الحفظ والإعداد.

ثم تأمل هذا الموضع البديع: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي}.

هذه من أعجب الآيات في قصة موسى كلها؛ لأنها تكشف ما وراء الأحداث. ليس الذي جرى سلسلة مصادفاتٍ عجيبة، بل صنعة، وليس مجرد حفظٍ عابر، بل تكوينٌ مقصود، وليس مجرد نجاة من القتل، بل إعدادٌ لإنسانٍ سيُحمل بعد ذلك ما لا يحتمله إلا من ربّاه الله بنفسه تربيةً تناسب الرسالة.

ومعنى {وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي} في ظاهر التفسير: لثُرْبَى وتُغْذَى وتُنشَأ تحت حفظ الله وكلاءته ورعايته، ولكن التأمل في هذا المعنى يفتح بابًا هائلًا: إن موسى لم يكن يتحرك في قصة حياته الأولى من حدثٍ إلى حدث، بل كان ينتقل من طورٍ إلى طورٍ في مدرسةٍ إلهيةٍ لا يغيب عنها شيء، وهذا يمنح المؤمن معنى بالغ الطمأنينة: أن حياته قد تبدو له متناثرة، لكن ربّه ينسجها بخيطٍ محكم، وأن المراحل التي يظنها مفككة قد تكون في علم الله حلقاتٍ متصلة في مشروع إعدادٍ أكبر مما يراه.

ثم تأتي المفارقة التي تكاد تخطف القلب: يُرَبَّى موسى في بيت فرعون. في بيت الرجل الذي يريد قتل أمثاله. في البنية ذاتها التي قامت على الاستكبار. فلماذا؟ لأن الله أراد لهذا النبي أن يعرف من الداخل طبيعة القصر، ومنطق

السلطة، وهشاشة الجبروت الذي يكسو نفسه بالذهب والهيبة والطقوس. فالذي سيقف بعد ذلك أمام فرعون ليس رجلاً سمع عنه من بعيد، بل رجلاً عرف البيئة التي يُصنع فيها الكبر، وعرف أن ما يبدو في أعين الناس جبلاً لا يُقهر قد يكون في حقيقته بناءً هشاً منتفخاً بالوهم.

وهذا ملمح بالغ العمق: إن الله أحياناً يُدخل عبده في قلب العالم الذي سيواجهه لاحقاً، لا ليزوب فيه، بل ليفهمه، ويعرف حدوده، ويكتشف أن ما يربع الناس ليس دائماً كما يظنون.

وهكذا فإن موسى لم يُربَّ في عزلة عن فرعون، بل رُبي قريباً من عالمه، حتى إذا جاء يوم المواجهة لم يكن مبهوراً ببريق القصر، لأن من عرف البنية من الداخل لا تفتنه الواجهة من الخارج.

غير أن قصة موسى لا تقف عند الحفظ في الطفولة، بل تنتقل إلى طور آخر من التكوين: طور الخطأ البشري، والفرار، والتوبة، والمنفى، وذلك في قصته مع القبطي حين {فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}. وهذا الموضع من أرق مواضع القصة وأشدّها إنسانية؛ لأنه يكشف أن الله لا يُعَدّ عبده للرسالة عبر الصورة الملساء التي لا تعرف اضطراباً، بل قد يمرّ العبد بمحطة تهزّه من الداخل، ليتعلم بها حدود ذاته، وخطورة الاندفاع، وضرورة الاحتماء بالله، وأن الرسالة لا يحملها مزاجٌ منفعل، بل نفسٌ نُقِيت وتهذبت وعرفت وزن الفعل.

ولذلك ما إن وقع الأمر حتى قال موسى: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي}

ثم قال: {رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ}.

يا لعظمة هذه الوقفة، إن موسى لم يبرر، ولم ينام، ولم يختبئ خلف النية، بل عاد فوراً إلى مركز العبودية: اعترف، واستغفر، وأعاد تعريف نفسه أخلاقياً، وهذا في التكوين الرسالي أمرٌ حاسم؛ لأن أخطر ما يفسد الدعاة والمصلحين ليس الذنب وحده، بل العجز عن رؤية الذنب، أو القدرة على تزيينه للنفس، أما موسى فقد أَرانا أن المعدن النبيل لا يُعرف بأنه لا يتعثر فقط، بل يُعرف أكثر بسرعة الرجوع، وصدق الانكسار، وإعادة بناء الموقف على ضوء مرضاة الله.

ثم يخرج من مصر خائفاً يترقب، وهنا نرى موسى في صورة الإنسان الذي فقد دفء الاستقرار، وانقطعت به السبل، وخرج لا يحمل مشروعاً واضحاً في نظره، لكنه في الحقيقة يُساق إلى فصلٍ جديد من الإعداد، يصل إلى مدين، متعباً، جائعاً، غريباً، ثم يسقي للمراتين، ثم يتوجه إلى الله بذلك الدعاء الذي يكاد يلخص كل الإنسان المؤمن: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}.

هذه ليست جملةً جوعٍ فقط، بل جملةً وجود، كأن موسى بعد أن مرّ بالخوف، والقتل الخطأ، والفرار، والوحدة، صار في ذروة الصفاء التي يرى فيها حقيقة نفسه: أنا فقيرٌ إلى خيرك كلّ، لا إلى بعضه؛ إلى الرزق، وإلى الأمان، وإلى الهداية، وإلى الستر، وإلى الطريق، وإلى المعنى، وإلى الغد، وهذه اللحظة ليست هامشاً في القصة، بل من أعظم محطات تكوين موسى؛ لأن الذي سيقف بعد ذلك بين يدي الله متلقياً الوحي، ثم بين يدي فرعون مبلغاً بالحق، لا بد أن يكون قد مرّ بمحطةٍ سقطت فيها من نفسه أوهام الاكتفاء، وبقي فيها قلبٌ يعرف أنه لا يقوم إلا بالله.

إن موسى قبل الرسالة لم يكن في زمن انتظارٍ فارغ، بل كان في معمل إلهي للتكوين: أم تتعلم التوكل، وطفلٌ يحفظ في اليم، وقلبٌ يلقي عليه القبول، ونشأة في بيت الخصم، وتجربةٌ اندفاعٍ تُعقِّبها توبة، ومنفى يُنضج، وغربة تُصفي، وفقرٌ يفتح أبواب الدعاء. وكل ذلك قبل أن يقال له عند الطور: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}.

وهنا يظهر المعنى الكبير الذي ينبغي أن يؤسس هذا الكتاب كله:

إن الرسالة لا تُعطى عادةً لمن لم يُهذَّب بالابتلاء، ولم يُنقَّ بالافتقار، ولم يتعلم أن الله هو الركن حين تنهاوى الأركان.

فموسى لم يصل إلى الطور من فراغ، بل وصل إليه بعد أن جُرد من أوهام كثيرة، حتى صار مستعداً أن يتلقى الكلمة التي ستعيد تشكيل وجوده كله.

مفتاح الفصل الأول

إذا أردنا أن نلخص هذا الفصل في عبارة واحدة، فهي:

إن الله لم يُخرج موسى من خوف، بل ربّاه داخل الخوف حتى يصير أهلاً لحمل الأمانة.

فالخوف في قصة موسى ليس مجرد عارضٍ نفسي، بل مادةٌ من مواد التكوين؛ إذ تعلّمت أمه التوكل فيه، وتعلم هو الافتقار فيه، وتعلم أن النجاة ليست دائماً في الهرب من المشهد، بل في أن يربط الله قلبك به ثم يضعك في المشهد الذي شاءه لك.

الفصل الثاني

الطور العظيم: حين يُعيدُ الله تعريفَ الإنسان بكلمةٍ واحدةٍ

{إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}

ليس في قصة موسى عليه السلام مشهدٌ أشدَّ جلالاً، ولا أبعدُ أثراً في بناء الوعي الإيماني، من ذلك المشهد الذي خرج فيه موسى من مدين قاصداً مصر، في ليلٍ بارد، وفي دربٍ موحش، ومعه أهله، وقد ضلَّ الطريق، فرأى ناراً من جانب الطور، فقال: {إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}.

إن ظاهر المشهد بسيط: رجلٌ مسافر، أنهكه السير، وفاجأه الليل، واحتاج إلى دفعٍ أو دليلٍ أو خبرٍ يهديه.

لكن القرآن، في طريقته المهيبة، لا يذكر هذا الظاهر لمجرد الحكاية، بل لأنه يريد أن يفتح من خلاله باباً من أعماق أبواب الفهم: كم من مرة يخرج الإنسان يطلب شيئاً صغيراً، فيقوده الله إلى ما هو أعظم من ظنه وأبعد من أمله؟ وكم من مرة تكون الحاجة الجزئية التي وعيتها بنفسك جسراً إلى الاستجابة الكلية التي قدرها الله لك منذ زمن؟

لقد ذهب موسى يريد جذوةً من نار، فعاد يحمل ناراً أخرى: نار الوحي التي تُضيء التاريخ، لا خيمةً في ليل السفر فحسب.

ذهب يريد أن يهتدي إلى الطريق، فعاد هو نفسه طريقاً لقوم تاهوا طويلاً في ظلمات الذلّ والعبودية والاضطراب.

ذهب يبحث عن دفءٍ عابر، فعاد حاملاً خطاباً إلهياً يدفى وجود الإنسان كله، لأنه يرده إلى أصله، ويعيد تعريفه بربه، ويضعه من جديد في موضعه الصحيح من الكون.

وهنا يكمن سرٌّ عظيم من أسرار التكوين الرباني: أن الله أحياناً لا يستدعيك إلى مهمتك الكبرى من المواضع التي تتوقعها، ولا في لحظات القوة الظاهرة، ولا بعد إعلانٍ صاخبٍ عن قرب التحول، بل يفاجئك بها في لحظة إنسانية عادية، في سياق ضعفك واحتياجك وتيهك وبردك وطلبك المحدود. وكأن القرآن يريد أن يحررنا من التصور الساذج بأن التحولات الكبرى تبدأ دائماً في صورة كبرى؛ كلا، بل قد تبدأ من لحظة شديدة العادية في نظر البشر، غير أن عين العناية كانت ترتبها من وراء الستار لتكون بوابة الفصل الجديد من عمرك كله.

فلما أتاها نودي: {يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}.

هذه الآيات من الجلال بمكانٍ يجعل القلب لا يمرّ عليها مروراً سريعاً؛ لأن كل كلمة فيها ليست خبراً فحسب، بل إعادة خلقٍ داخلي للإنسان الذي يسمعها. إن أول ما يواجه به الوحي موسى ليس الأمر بالذهاب إلى فرعون، ولا بيان المعجزة، ولا شرح تفاصيل المهمة، بل يواجهه أولاً بهذه الحقيقة المؤسسة: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}. كأن الرسالة كلها، بكل ما فيها من تكليفٍ ومواجهةٍ ومخاطرٍ ووعودٍ وابتلاءات، لا يمكن أن تُبنى ابتداءً إلا على هذه الكلمة.

لأن الإنسان إذا لم يُحسم في داخله أولاً سؤال: من ربّي؟ فلن يحسن بعد ذلك أن يجيب عن أي سؤال آخر: من أنا؟ ولماذا أتحرك؟ ولأجل من أصبر؟ وبأي ميزان أرى الأشياء؟ ومن أين أستمد قوتي؟ ولمن تكون الطاعة والخوف والرجاء والولاء؟

إن أول إصلاح أجراه الوحي في موسى عند الطور لم يكن إصلاحاً في الخطّة، بل إصلاحاً في المركز، فالقضية قبل الرسالة هي: إلى أي مركزٍ ستنتسب؟ من الذي سيحدد لك المعنى؟ من الذي ستقف بكلمته في وجه كلمة فرعون؟ لا بد أولاً أن يستقر في أعماقك استقراراً وجودياً لا يتزعزع أن ربك هو الله، لا الواقع، ولا الخوف، ولا القصر، ولا التاريخ، ولا الموازين المتضخمة في عيون الناس. ولهذا ابتدأ النداء بهذه الجملة التي تبدو قصيرة في المبنى، لكنها في الحقيقة أعظم من كل خرائط الصراع: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}.

وفي هذه الآية سرٌّ بالغ الإشراف: أن الله لم يعرف موسى بنفسه تعريفاً ذهنياً مجرداً، بل تعريفاً ربانياً مباشراً يملأ الكيان حضوراً وهيبةً وانتماءً وطمأنينة. فحين يقول له: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}، فهو لا يلقيه معلومةً يضيفها إلى معارفه، بل ينقله من حالٍ إلى حال، ينقله من إنسانٍ يعيش في العالم، إلى عبدٍ يعرف من يحكم العالم، ينقله من نفسٍ قد تضلها التفاصيل، إلى قلبٍ أمسك بالمفتاح الكلي الذي يردّ كل شيء إلى موضعه.

وهذا هو الفرق الهائل بين معرفة دينية سطحية تحفظ العناوين، وبين معرفة إيمانية حيّة تُعيد ترتيب الداخل كله؛ الأولى قد تُنتج ثقافة، وأما الثانية فتُنتج إنساناً.

ثم يأتي الأمر: {فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ}.

ظاهر المعنى في التفسير أن هذا أدبٌ مع الموضع المقدس وتعظيمٌ لمقام المناجاة، وهذا ظاهرٌ صحيحٌ محكم. لكن التأمل في هذا الأمر يفتح باباً آخر: إن الوقوف بين يدي الله لا يكون بجرّ أوساخ الطريق إلى مقام القرب، لا بد من خلع شيء، من وراء النعل الحسي، حتى يتهيأ القلب لسماع الكلمة التي ستعيد تشكيله، فكأن في الأمر إشارةً إلى أن من أراد أن يسمع عن الله حقّ السماع، وأن يحمل عنه الأمانة حقّ الحمل، فلا بد أن يدخل على الوحي بتجردٍ وهيبَةٍ واستعداد، لا بصخب النفس، ولا بعجرفة التجربة، ولا بادعاء الاكتفاء، ولا بثقل ما علق به من عوائد الطريق ومخاوفه وغباره.

وليس المقصود هنا أن موسى كان يحمل تلك المعاني المذمومة، حاشاه، ولكن المقصود أن الوحي يؤسس في النفس أدب التلقي: لا تدخل على كلام الله كما تدخل على أي كلام، ولا تقف في ساحة الاصطفاء كما تقف في سائر ساحات الدنيا، بل هناك حالٌ من الخشوع الداخلي، ومن الانتباه الكلي، ومن الانفصال عن العاديّ، لا بد منه، لأن الذي سيأتي بعد ذلك ليس أمراً جزئياً، بل أمرٌ سيغيّر موقعك في الوجود.

ثم يقول له سبحانه: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}.

وهنا نصل إلى لبّ آخر من لباب هذا المشهد: أن اختيار الله لعبده لا يُراد منه أن ينفخ فيه شعور التفوق، بل يُراد منه أن يضاعف فيه مسؤولية السمع، لم يقل له: اخترتك فتكلم، ولا اخترتك فتصدّر، ولا اخترتك فاعتدّ بنفسك، بل قال: {فَاسْتَمِعْ}. لأن أول ما يفسد الاصطفاء أن يتحول في وعي العبد إلى امتيازٍ ذاتي، وأول ما يحفظ الاصطفاء أن يظلّ العبد متذكراً أن شرفه كله

منحه الله له، وأن أول واجبات هذا المنح أن يصير مُصغياً قبل أن يصير مبلّغاً.

ما أروع هذا الترتيب. إن الله لا يبني أهل الرسالة من موضع الكلام أولاً، بل من موضع السماع أولاً؛ لأن الذي لا يحسن الاستماع للوحي لا يحسن الكلام به، والذي لم يمتلئ من خطاب الله لن يملك إلا أن يقدم للناس من نفسه أكثر مما يقدم لهم من ربه.

ولذلك فإن أعظم أزمة تصيب الدعاة والمصلحين والعاملين للكلمة، ليست دائماً في فساد نياتهم الظاهرة، بل كثيراً ما تبدأ من لحظة خفية يتراجع فيها الإصغاء لكلام الله، ويتقدم الكلام من الذات، فيكثر الصوت ويقلّ النور. أما موسى فقد تأسس من البداية على هذا الأصل: الاختيار يورث إصغاءً، لا استعلاءً.

ثم يأتي لبّ النداء وأساس الرسالة كلها: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}.

هذه الآية ليست في الحقيقة جزءاً من الرسالة، بل هي الرسالة في أصلها الأول، كل ما سيأتي بعد ذلك من مواجهة فرعون، وإخراج بني إسرائيل، وإظهار الآيات، والصبر على الجماعة، وتلقي الألواح، والسير في دروب الابتلاء، إنما هو تفصيل لما تقرر هنا، فجوهر الدين ليس أن تنتصر على فرعون فحسب، بل أن تعرف أولاً أن الإله هو الله وحده، وليس المقصود أن تُسقط طاغيةً خارجياً فحسب، بل أن تستردّ مركز العبادة كله من كل ما نازع الله فيه.

ولهذا كانت أول كلمة عملية بعد تقرير التوحيد هي: {فَاعْبُدْنِي}. لأن الحقيقة التي لا تتحول إلى عبودية هي علمٌ لم يكتمل بعد، والمعرفة التي لا تصوغ السلوك والوجهة والانقياد تبقى ناقصة مهما بدت عالية.

والعبادة هنا ينبغي أن تُفهم على سعتها القرآنية الكبرى، لا على ضيق التصورات المألوفة؛ إنها ليست فقط الشعائر، وإن كانت الشعائر قلبها الظاهر الجليل، بل هي أن يعود الكيان كله إلى الله: خوفه، ورجاؤه، وطاعته، وولاؤه، واعتماده، وتصوره للخير والشر، ومعياره للحق والباطل، ونظرته إلى السلطة، وإلى الناس، وإلى نفسه.

إن فرعون لم تكن أزمته أنه حاكمٌ فاسد فقط، بل إنه نازع الله موضع الألوهية في الأرض، ولهذا فإن موسى لا يمكن أن يواجهه مواجهةً صحيحة ما لم يكن قد امتلأ أولاً بحقيقة: لا إله إلا الله، فهذه الكلمة ليست مفتاح النجاة الأخروية فقط، بل مفتاح تحرير الإنسان من كل سلطةٍ تريد أن تستولي على قلبه أو ضميره أو معناه أو حقه في أن يعبد الله وحده.

ثم يلفتنا أن أول ما ذكر بعد العبادة هو الصلاة: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}.

وهنا سرٌّ بديع جدًّا؛ لأن موسى سيُدفع بعد قليل إلى واحدة من أعظم المواجهات في تاريخ الرسالات، ومع ذلك فإن الله لا يبدأ بتسليحه بخطةٍ سياسية، ولا بتدريبٍ خطابيٍّ، بل يربطه بالصلاة. لماذا؟ لأن أخطر ما يواجهه حملة الرسالة ليس دائمًا بطش الخصوم فقط، بل أن تجرفهم الساحة حتى ينسوا مصدر مددهم، فالصلاة في هذا الموضع ليست تكليفًا تعبديًا معزولاً عن مشروع المواجهة، بل هي شريان الصلة الذي يمنع الرسالة من أن تتحول

إلى جهدٍ بشريٍّ جاف، ويمنع المواجهة من أن تتحول إلى صراعٍ إراداتٍ أرضية، ويمنع القلب من أن يفرغ في لحظة الضغط من حضوره مع الله.

إن في قوله: {الذِّكْرِي} ما يفيض بدلالاتٍ عميقة؛ كأن الله يقول لموسى: ستدخل ميادين يكثر فيها الضجيج، وتتعاظم فيها الصور، ويتضخم فيها حضور الطاغية في أعين الناس، وسترى البحر، والسحرة، والقوم، والعجل، والجبل، والغضب، والخذلان، والعناد؛ فلا تنسَ أن كل ذلك لن يفهم على حقيقته، ولن يُحتمل على وجهه، إلا إذا بقي الذكر حاضراً في قلبك. فالصلاة ليست انقطاعاً عن مهمتك، بل هي حراستها من أن تنفصل عن أصلها. ليست انسحاباً من معركة الحق، بل هي إعادة شحن المعنى الذي لأجله تُخاض المعركة.

ثم انظر كيف يُخبره الله عن الساعة: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}.

وضع هذا المعنى في هذا الموضع ليس عارضاً. لأن الله لا يريد لموسى أن يتحرك في الدنيا فقط بمنطق المهمة العاجلة، بل بمنطق المآل الأكبر، فمن دون الآخرة تضيق الرؤية، ويصير الصراع على الأرض مقصوراً على الحسابات الفورية، وقد ينخدع الإنسان إذا رأى الباطل منتفخاً والحق مثقلاً. أما حين تحضر الساعة في الوعي، فإن كل شيء يُرى بحجمه الحقيقي، ويغدو الصبر ممكناً، والثبات مفهوماً، والتضحية معقولة، لأنك لم تعد تنظر إلى الفصل الراهن وحده، بل إلى الكتاب كله.

ولعل من أعظم أسباب الانكسار النفسي في طريق الدعوة والإصلاح أن يعمل الإنسان وكأن يوم القيامة فكرةٌ بعيدة، لا حقيقةً ضاغطةً في ضميره.

أما موسى فقد رُبط من أول التكليف بالآخرة، حتى لا يختلط عليه ميزان الزمن.

ثم يأتي التحذير: {فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى}.

وهذا من دقائق القرآن العجيبة؛ فإن الله يعلم أن التحدي الخارجي لا يقتصر على الإيذاء الجسدي أو الرفض السياسي، بل ثمة صدُّ أخطر: صدُّ عن مركز اليقين، عن بوصلة المال، عن حفظ الداخل من التآكل. وكأن هذه الآية تنبّه إلى أن طريق الرسالة ليس فقط صبراً على بطش المجرمين، بل صبراً أيضاً على الضغوط التي تحاول إعادة تعريف الواقع لك، وتحاول أن تقنعك أن الآخرة ليست عملية في هذا العالم، وأن الهوى أكثر فاعلية من الإيمان، وأن التنازل عن بعض الحقائق الكبرى ضرورة للحركة.

لذلك جاء التحذير مبكراً: لا تدع الذين فقدوا الإيمان بالمآل يفرضون عليك تصوراتهم؛ لأن من انقطع عن الآخرة صار أسيراً للهوى ولو لبس ألف قناع.

بعد ذلك يلفت الله موسى إلى العصا: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}.

وفي ظاهر التفسير أن الله سألَهُ وهو أعلم بما في يده، ليقرره ويؤنسه ويهيئه لما سيأتي من المعجزة، وهذا صحيح، لكن وراء ذلك أيضاً سرٌّ تربويٌّ لطيف: أن الله كثيراً ما يبدأ مع عبده من الشيء الذي في يده، لا من الشيء الذي يتخيله بعيداً عنه، فموسى يحمل عصاه، شيء مألوف جداً، يستند عليه، ويهشّ بها على غنمه، وله فيها مآرب أخرى.

إنها جزءٌ من يومه العادي، من بساطته، من حياة الرعي والمنفى والارتحال. ثم فجأةً سيجعلها الله آيةً تهزُّ عرش فرعون وتفلق البحر وتلتهم سحر السحرة. ما معنى ذلك؟ معناه أن القدرة الإلهية لا تحتاج إلى أدواتٍ مبهرة حتى تبدأ، بل قد تجعل من أكثر الأشياء عاديةً في حياتك جسراً لخرقٍ عظيم، إذا شاءت.

إن في هذا المعنى تربيةً بديعةً لكل مؤمن: لا تحتقر ما في يدك إذا كان الله معك، ولا تظن أن نصيبك من التغيير مرهونٌ بأن تملك عدةً خارقةً في أعين الناس، فكثيراً ما يكون أعظم ما يفتح الله به عليك أقرب الأشياء إليك، ولكنك لم تكن ترى إمكانه، لأنك كنت تنتظر إليه بعين العادة، لا بعين القدرة الإلهية. موسى رأى عصاه عصاً، لكن الله أراد أن يريه أن الشيء حين يتصل بالأمر الإلهي يخرج من حدود تعريفه المادي الضيق إلى أفقٍ آخر.

وهكذا ألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى، فولّى مدبراً ولم يعقب، وهذه الرهبة البشرية من موسى لا تنتقص منه، بل تزيد المشهد صدقاً وعظمة؛ لأن الله لا يرسل ملائكةً في هيئة بشر، بل يرسل بشراً يصطفاهم، ثم يثبتهم، ثم يعلمهم كيف ينظرون إلى الآية بعد أن كانوا يرونها بعين المفاجأة.

فقال له: {خُذْهَا وَلَا تَخَفْ} سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى.

ما أعجب هذا الموضع. لم يقل له فقط: لا تخف من فرعون، ولا من الطريق، بل قال له هنا: لا تخف من الآية نفسها، لأن الإنسان قد يفرع أحياناً من تجليات القدرة حين تنقله فجأةً خارج ما ألفه من نظام الأشياء، والله يريد أن يربي موسى على أن يكون قلبه قابلاً لحمل الخارق كما حمل العادي، وأن يثق أن الذي غير الهيئة قادراً على أن يعيدها، وأن الآية ليست فوضى، بل

تجلّ منضبطٌ تحت سلطان الله. وهذا مهم جدًّا؛ لأن الذي سيقود قومًا رأوا العجائب لا بد أن يكون هو نفسه قد تربى على السكينة في حضرة العجيب.

ثم تأتي آية اليد: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}.

وفي هذا تنبيهٌ لطيف أيضًا إلى أن الآيات ليست كلها صادمةً على صورة الرهبة، بل منها ما يجيء في صورة النور والجمال والطهارة، فالقدرة الإلهية لا تُعرَف فقط حين تتحول العصا حيَّةً، بل تُعرَف أيضًا حين يخرج الضوء من اليد البشرية نفسها بغير سوء، كأن الله يعلم موسى أن يدرك تنوع سننه، وأن يكون وعيه بالقدرة أوسع من نمطٍ واحد، فربُّ يُظهر الآية في هيئة القوة الكاسرة، ويظهرها أيضًا في هيئة النور الساطع، هو ربُّ لا تحدّه تصورات البشر ولا قوالهم.

ثم يقول سبحانه: {لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}.

وهنا نصل إلى معنى في غاية الأهمية: أن الله قبل أن يرسل موسى ليُري فرعون الآيات، أراه هو الآيات، وهذا ترتيبٌ تربويٌّ بالغ الحكمة؛ لأن من لم يرَ بعين قلبه آيات الله الكبرى، لا يثبت حين يطلب منه أن يحملها إلى الناس. ومن لم يمتلئ يقينًا بما أراه الله له، فقد تزلزله سطوة القصور، أو ضخامة الجمع، أو عناد المكذابين، ولذلك فإن الله لم يرسل موسى إلى فرعون مباشرةً من غير إعداد وجداني ويقيني، بل جعله أولًا في مدرسة المشاهدة: رأى، وسمع، وخاف، ثم طمأنه الله، ثم أعاده إلى التوازن، ثم قال له بعد كل ذلك: اذهب.

وهنا نلتفت إلى أمرٍ دقيق جدًا في البناء القرآني: أن الله لم يبدأ تكليف موسى بقوله: اذهب إلى فرعون، بل سبقه بكل هذا التأسيس العقدي والروحي والوجداني.

وهذا يعلمنا أن الخلل الكبير في كثير من الأعمال الرسالية والإصلاحية إنما يأتي من استعجال المواجهة قبل اكتمال التأسيس، يريد الناس أن يذهبوا إلى فرعون زمانهم قبل أن يسمعوها جيدًا: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}، وقبل أن تستقر فيهم: {فَاعْبُدْنِي}، وقبل أن تُبنى صلتهم بـ {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}، وقبل أن يُربطوا بالآخرة، وقبل أن يروا بعض آيات الله الكبرى في حياتهم الداخلية. فإذا دخلوا المعركة بزادٍ قليل، أكلتهم الساحة، أو ابتلعهم الغضب، أو استدرجتهم الأهواء، أو أرهبتهم الصور.

إن الطور إذن ليس مجرد مكانٍ تلقى فيه موسى التكليف، بل هو مختبر إعادة الصياغة، هناك لم يُعطَ مهمةً فقط، بل أُعيد تعريفه، هناك لم يُخبر بما سيفعل فحسب، بل عُرِّفَ بمن هو ربّه، وما هي حقيقة العبادة، وما هي الصلاة، وما هو حضور الساعة، وما هي طبيعة الآيات، وكيف يتحرك القلب حين يفاجئه الخارق، وكيف يتلقى الوحي باختيار الله لا بادعاء النفس، ولذلك فكل ما سيأتي بعد هذا من مشاهد الرسالة إنما يفهم على ضوء ما جرى هنا؛ فالطور ليس مقدمةً سردية، بل هو الجذر الذي سيسقي كل الفروع.

ومن أطف ما يُتأمل هنا أن موسى جاء إلى النار لطلب الخبر، فإذا بالخبر الحقيقي ليس خبر الطريق، بل خبر السماء؛ وجاء يطلب الجذوة ليدفئ أهله، فإذا بالله يمنحه ما يدفئ به أمةً كاملة؛ وجاء في ليل التيه، فإذا الله يفتح له

بوابة المعنى التي لولاها لما عرف الإنسان كيف يخرج من أعظم ألوان التيه: تيه القلب حين ينسى ربّه.

ولو أردنا أن نلخص هذا الفصل في كلمة واحدة، لقلنا:

إن الله حين أراد أن يرسل موسى إلى العالم، أعاده أولاً إلى الله.

لأن أخطر ما يمكن أن يقع فيه حامل الرسالة أن يذهب إلى الناس قبل أن يرسخ في مقام العبودية، أو أن يدخل ساحات الصراع قبل أن تُحسم في داخله قضية الربوبية والألوهية والعبادة والذكر والمآل.

وأما موسى فقد بُني من الداخل قبل أن يُدفع إلى الخارج، وربط بالسماء قبل أن يُرسل إلى الأرض، ومُلئ بالله قبل أن يقف في وجه من ادعى الألوهية في الأرض.

وهذا هو سرّ الطور العظيم: أنه لم يكن فقط مكان تكليف، بل مكان ولادةٍ ثانية، لقد وُلد موسى أول مرة من رحم أمّه في زمن المذبحة، وها هو هنا يولد مرةً أخرى من رحم النداء الإلهي في زمن الاصطفاء.

الأولى حفظت جسده من سكين فرعون، والثانية حفظت روحه من أن تتكئ على غير الله وهي ذاهبةٌ إلى فرعون.

مفتاح الفصل الثاني

يمكن أن نكتفٍ روح هذا الفصل في هذه العبارة:

إن الرسالة لا تبدأ من معرفة المهمة، بل من معرفة الرب.

فإذا استقرّ في القلب: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}، أمكن بعد ذلك أن تُفهم المواجهة،
وتُحتَمَل التكاليف، وتُرى الآيات على وجهها، ويثبت الإنسان حين تضطرب
الأرض من حوله.

لكن موسى، بعد كل هذا الاصطفاء، لم يُخَفِ ضعفه، ولم يتظاهر أمام الله
بكمالٍ موهوم، بل قدّم واحدةً من أصدق لحظات الإنسان الرسالي في القرآن،
حين قال: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ
لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي}.

وهنا يبدأ فصلٌ من أبدع فصول التكوين:

لماذا كان اعتراف موسى بضعفه جزءًا من قوته؟ ولماذا لا يصنع الله أهل
الرسالة من المتكلفين للكمال، بل من الصادقين في الافتقار؟

الفصل الثالث

الافتقار الذي يصنع القوة: لماذا بدأ موسى دعاءه بطلب الشرح لا بطلب النصر؟

{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}

من أبدع ما في قصة موسى عليه السلام، ومن أكثره كشفًا عن المنهج القرآني في بناء الإنسان الرسالي، أن موسى بعد ذلك النداء العظيم، وبعد أن سمع من ربّه ما سمع، وبعد أن أرى من الآيات الكبرى ما أرى، لم يندفع إلى مهمته اندفاع من أغري بقوته، ولا تحرك تحرك من امتلأ بنفسه، ولا قال بلسان المستعلين: أنا لها، وأنا أهلها، وأنا أعرف الطريق. بل وقف بين يدي الله موقفًا آخر، هو في حقيقته من أعظم أسباب أهليته: وقف موقف المفتقر.

وهنا ينبغي أن نتأمل بعمق؛ لأن كثيرًا من الناس يظنون أن القوة الرسالية تبدأ من شعور متضخم بالقدرة، أو من نبرة عالية، أو من إخفاء الضعف حتى لا تهتز صورة صاحب الدعوة في أعين الناس. لكن موسى عليه السلام يعلمنا من أول لحظة أن أهل الرسالات لا تُبنى قوتهم من ادعاء الاكتمال، بل من صدق المعرفة بحدودهم، ومن ردّ تلك الحدود إلى الله طلبًا للعون والشرح والتيسير. فليس الافتقار هنا نقيض القوة، بل هو بابها؛ لأن الذي يعرف موضع عجزه بدقة، ثم يرفعه إلى الله بدقة، أقرب إلى أن يُمدّ من الذي يجهل نفسه أو يخادعها.

قال تعالى حاكياً دعاءه: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي *
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي *}

هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا *
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا{.

هذه الآيات ليست مجرد دعاء نبيٍّ قبل مهمة صعبة، بل هي في الحقيقة ميثاقُ التكوين النفسي والروحي والعملِي لكل من يحمل حقًّا ويريد أن يبلغه إلى الناس. ففيها تظهر خريطة الداخل قبل خريطة الخارج، وفيها نرى أن الإنسان إذا أراد أن يواجه فرعون، فلا بد أن يبدأ أولاً بضبط صدره ولسانه ومعيته ووجهته، لأن أعظم المعارك لا تُربح فقط بما تملكه من الحجة، بل بما يملكه قلبك من الاتساع، ولسانك من البيان، وصحبك من التساند، وذكرك من الاتصال بالله.

أولاً: لماذا قال: {اشْرَحْ لِي صَدْرِي}؟

ليس أول ما طلبه موسى النصر، ولا المعجزة، ولا تحطيم سلطان فرعون، ولا حتى حماية نفسه من بطشه، وإنما بدأ بشيء يبدو في نظر السطحيين داخلًا جدًا: شرح الصدر. وهذا وحده كافٍ ليدلنا على عمق الفقه النبوي بحقيقة الطريق؛ لأن موسى يعلم أن من ضاق صدره ضاقت رؤيته، وارتبك حكمه، واستعجل، وتوتر، وانفعل، وربما قال كلمةً في غير موضعها، أو حمل الناس على ما لا يحتملون، أو انهزم باطنًا قبل أن يهزم ظاهرًا. أما إذا انشرح الصدر، صار القلب أوسع من ضغط اللحظة، وأرحب من الاستفزاز، وأهدأ من العجلة، وأقوى على احتمال التكرار، وأقدر على حمل الرسالة من غير أن تبتلعه ردود الأفعال.

إن شرح الصدر في هذا المقام ليس راحةً نفسيةً سطحية، بل هو سعةً ربانيةً تجعل القلب أكبر من ثقل التكليف.

كأن موسى يقول: يا رب، إن المهمة التي أرسلتُ بها ليست من جنس ما تحتمله النفس بطبعها من غير مدد، فلا تتركني إلى صدري الطبيعي، بل افتح لي في داخلي فسحةً تليق بما أنا مقبل عليه. لأن الإنسان حين يدخل الميادين الكبيرة بصدرة الصغير يختنق، وحين يواجه الاستبداد بقلبٍ لم تُلقَ فيه السكينة يضطرب، وحين يصبر على الجماعة بداخلٍ غير مشروح ينكسر سريعاً أو يقسو سريعاً. ولهذا كان الشرح سابقاً على كل شيء؛ لأنه بمثابة تهيئة الوعاء قبل أن يوضع فيه الحمل.

ومن ألطف ما يتأمله القلب هنا أن موسى لم يقل: أعطني صدرًا جديدًا، بل قال: {اشْرَحْ لِي صَدْرِي}. أي إن الصدر موجود، لكن المطلوب أن يتسع. وهذه إشارة رفيعة إلى أن ما في الإنسان من أصل الفطرة، وأصل القدرة، وأصل الاستعداد، لا يكفي وحده حتى ينزل عليه مدد الله فيوسعه ويطلقه ويُخرج منه طاقاتٍ لم يكن يعرفها عن نفسه. فكأن شرح الصدر هو انتقال النفس من حدودها الأولى إلى سعةٍ يفيضها الله عليها؛ ولهذا كان الشرح نعمةً لا تُنتج بالإرادة المجردة، بل تُستمد من الله.

ولذلك أيضاً فإن شرح الصدر في القرآن قرين الهداية، كما في قوله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ}. فالشرح ليس مجرد انبساط وجداني، بل هو قابلية الحق أن يستقر في الداخل من غير اختناق.

وموسى هنا لا يطلب فقط أن يحتل الرسالة، بل يطلب أن يحتل آثارها، واحتكاكها بالعالم، وطول الطريق، وعناد الخصوم، وتقلب المستضعفين، وتكرر الفتن. فهو في الحقيقة يطلب الوعاء الذي لا ينكسر إذا ملئ بالأمانة.

ثانيًا: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} — لأن الحق إذا تُرك إلى النفس تعسر

بعد الشرح طلب التيسير. وهذا الترتيب بديع؛ لأن الصدر إذا اتسع أمكن أن يتحمل، لكن الأمر مع ذلك يحتاج إلى تيسير في المسالك، وفي القرارات، وفي ترتيب الوقائع، وفي فتح الأبواب المغلقة، وفي تهيئة الأسباب.

فكأن موسى يعلم أن السلامة من الداخل وحدها لا تكفي، كما أن الأسباب من الخارج وحدها لا تكفي، وإنما يحتاج الأمر إلى تهيئة شاملة: في النفس، وفي الطريق، وفي العناصر التي ستتدخل في المهمة.

وقوله: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} شديد العمق؛ لأنه لم يحدد أمرًا دون أمر، لم يقل: يسّر لي لقاء فرعون فقط، أو يسّر لي البيان فقط، أو يسّر لي الخروج ببني إسرائيل فقط، بل أطلقها إطلاقًا جامعًا. وهذا من فقه العبودية؛ لأن العبد أحيانًا لا يدرك من التعقيدات إلا ما ظهر له، لكن الله يعلم التعقيدات كلها، فيحسن بالعبد أن يرد الأمر كله إلى ربه، وكأن موسى يقول: يا رب، أنا أعلم طرفًا مما ينتظرني، لكنك تعلم كله، فاجعل هذا الأمر كله ميسورًا برحمتك، لا بقوتي.

وفي هذا درس جليل: أن من علامات النضج الإيماني أن يدرك الإنسان أن بعض المشاريع الكبيرة لا يكفي فيها التخطيط البشري مهما أحكم؛ لأن هنالك تشابكات، ونفوسًا، ومفاجآت، وأقدارًا، وموانع، وأبوابًا لا يفتحها إلا الله. فالتيسير هنا ليس بديلاً عن الأخذ بالأسباب، بل هو الروح التي تجعل الأسباب تعمل في اتجاهها الصحيح، وتمنعها من أن تتحول إلى شبكة تعقيد جديدة.

ثالثاً: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي} — الصدقُ مع موضع الضعف

من أروع ما في هذا الدعاء أن موسى سمى موضع حاجته بدقة، لم يكتفِ بأن يقول: أعني، بل قال: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي}. وهذا أدبٌ نبويٌّ عظيم في الافتقار: أن لا يكون الدعاء مبهمًا فقط، بل أن يتجه إلى العقدة الحقيقية التي قد تعوق البلاغ، فموسى يعلم أن مهمته قائمة على البيان، وعلى إقامة الحجة، وعلى مخاطبة فرعون والملا وبني إسرائيل، وأن في لسانه أمرًا يحتاج إلى تيسير، فذكره بلا موارد.

وهذا الموضع من أبلغ ما يردّ على ثقافة التجمل الكاذب التي تجعل الإنسان يخاف من الاعتراف بحدوده كأنها وصمة. كلا، إن القرآن هنا يكرم الصدق مع الضعف إذا كان مقترنًا بالتوجه إلى الله لا بالانهيار أمامه. فموسى لم يجعل عُقْدَةً لسانه مبررًا للانسحاب من الرسالة، ولم يجعلها ذريعةً للاعتذار عن التكليف، ولم يواجهها بالتكلف والاستعراض، بل فعل شيئاً أعمق: حوّل موضع النقص إلى باب دعاء.

وهذا من المعاني التي ينبغي أن تُكتب بماء القلب: إن مواضع النقص في الإنسان ليست دائماً أبواب سقوطه، بل قد تكون أبواب معرفته الأصدق بربه. فمن عرف عقده، ثم سأل الله حلها، دخل من باب العبودية الذي قد يُخرجه إلى منازل لم يبلغها من ظن نفسه كاملاً، وكثيراً ما تكون المشكلة الحقيقية ليست في وجود العقدة، بل في إنكارها أو سترها عن الله وعن النفس، حتى تعمل في الخفاء فتشوّه الموقف كله.

ثم انظر إلى الغاية التي ذكرها موسى: {يَفْقَهُوا قَوْلِي}. لم يقل: ليُعجبوا بي، أو ليقرّوا ببلاغي، أو ليتحدثوا عن فصاحتي، بل قال: {يَفْقَهُوا قَوْلِي}. وهذه

جملة لو تدبرها كل من يشتغل بالكلمة لتغيّر وجه خطابه. إن الهدف من البيان في المنهج النبوي ليس صناعة الانبهار، بل صناعة الفقه؛ ليس أن ينتصر المتكلم لصورة نفسه، بل أن يصل المعنى إلى قلوب الناس وعقولهم على وجهه الصحيح. فالمعيار هنا ليس جمالية الأداء لذاتها، بل قدرة الأداء على إيصال الحق.

يا لروعة هذا الصفاء. موسى لا يطلب حلّ العقدة ليقال إنه صار أفصح، بل لأن الرسالة أمانة، والمعنى يجب أن يصل، والحجة يجب أن تقوم، والتبليغ يجب أن يكون واضحًا. وهذا يضع يدنا على فارقٍ حاسم بين الكلمة الرسالية والكلمة الاستعراضية: الأولى همّها أن يفقه الناس، والثانية همّها أن يعجب الناس. وبين الهمّين بونٌ بعيد.

رابعًا: {وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي} — الرسالة لا تُحمل بالغرلة المتعالية

ثم يطلب موسى أخاه هارون، وهنا يبلغ الدعاء درجةً أخرى من العظمة؛ لأن موسى، مع ما أُوتي من اصطفاء، ومع ما رآه من آيات، ومع ما تلقاه من نداء، لم يتوهم أنه يكفي وحده من كل وجه، بل قال لربه: {وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي}.

في هذه الآية تقويضٌ مبكر لصورة البطل الفردي المتضخم الذي يظن أن حمل المشاريع العظمى يليق به وحده، وأن طلب العون نقصٌ في مقامه، كلا. إن موسى، وهو موسى، يطلب سندًا، لا لأنه عاجز عن أصل البلاغ، ولكن لأنه أفهم من أن يظن أن الرسائل تزدهر بالوحدة المتعالية، إنه يطلب الظهير، والعضد، والظهير ليس بديلًا عنه، بل مقوِّ له، وهذا من تمام الفقه؛ لأن بعض الأعمال إذا قامت على فردٍ واحد استنزفت طاقته، وضاق صدره،

وتعرض للانكسار أو الانفراد أو قلة المراجعة، أما إذا قامت على تعاضدٍ راشد، كان ذلك أقرب إلى الثبات، وأبعد عن الوهم، وأحفظ للاتزان.

وليس عجيبيًا أنه طلبه من أهله، وبالتحديد أخاه، لأن الأخوة هنا ليست مجرد قرابة دم، بل قرابة ثقةٍ ومعرفةٍ وامتدادٍ في النفس. كأن موسى يريد أن يقول: يا رب، اجعل في هذا الطريق مَنْ أعرفه ويعرفني، ويعينني على البلاغ، ويشارك في حمل الثقل، حتى لا أكون وحدي أمام أمواج المهمة. وهذا يكشف بعدًا إنسانيًا رفيعًا: أن النبوة نفسها لا تلغي حاجة الإنسان إلى الصحبة المؤمنة الصادقة، بل تزكيها وتوجهها.

خامسًا: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} — ما الذي ينكسر أولًا في الطريق؟

الأزر هو الظهر والقوة وما يُشدُّ به الإنسان. وحين يقول موسى: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} فهو كأنه يقول: يا رب، إن هذا الطريق يضع أثقالًا على الظهر المعنوي قبل الظهر الحسي، فأعطني بمن تعينني به ما يثبت هذا الظهر من أن ينثني. وهذا تعبير شديد العمق؛ لأن الذي ينكسر في طريق الرسالة ليس دائمًا الحجة، بل كثيرًا ما ينكسر الأزر: العزم، والروح، وطاقة الاحتمال، وقدرة المواصلة.

وموسى هنا لا يطلب أخًا على الهامش، بل أخًا يدخل في صلب المعركة، يعيد توزيع الثقل، ويمنع المهمة من أن تستفرد به. وهذا درس بليغ لكل حامل معنى: أن من الحكمة أن تعرف متى تحتاج من يشدُّ أزرَكَ، وأن طلب الشدِّ ليس ضعفًا، بل هو عين البصيرة بطبيعة الطريق. لأن من ظن نفسه مكتفيًا دائمًا قد يسقط في لحظة لم يتوقعها، لا لأنه أقل إخلاصًا، بل لأنه لم يفهم أن

الإنسان - مهما علا - يبقى مخلوقًا ذا طاقةٍ محدودة، وأن الله جعل من سننه في العمران والرسالة أن تتساند الأرواح المؤمنة.

سادسًا: {وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي} — لأن الأمر لله لا للذات

ثم يقول: {وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي}. لم يقل: في مجدي، ولا في منزلتي، ولا في واجهتي أمام الناس، بل قال: في أَمْرِي؛ أي في أمر الرسالة، في حمل التبليغ، في مواجهة فرعون، في خدمة الحق، وهذا يكشف صفاءً عجيبةً في نفس موسى؛ لأنه لا يتعامل مع الرسالة بوصفها ملكيةً شخصيةً يغار عليها من المشاركة، بل بوصفها أمرًا لله، وما دام أمرًا لله فإن توسيع دائرة الحاملين له نعمةٌ لا تهديد.

وهذا موضع رفيع جدًا في أدب الأنبياء، وهو كذلك من أشد المواضع فضحًا لأمراض النفوس في ميادين الدعوة والإصلاح؛ فإن كثيرًا من الناس يطلبون المشاريع ما دامت كلها تمرّ عبرهم، فإذا ظهر من يشاركهم القدرة أو الحضور أو التأثير ضاقت نفوسهم، كأن القضية كانت لهم لا لله.

أما موسى فشفافٌ إلى هذا الحد: لا يريد واجهةً منفردة، بل يريد إقامة الحق على أحسن وجه، ولو اقتضى ذلك إشراك أخيه في الأمر.

وهذا يعلمنا أن الإخلاص ليس فقط أن تعمل لله، بل أيضًا أن تفرح بأن يُحمل أمر الله معك، لا بك وحدك، وهذه درجة رفيعة لا يبلغها إلا من تحرر من الاستئثار الخفي، ومن حب التملك المعنوي للمشاريع.

سابعًا: لماذا؟ {كَيُّ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا}

هنا تبلغ الآيات ذروتها العجيبة، إن المرء قد يتوقع أن يعلل موسى طلب الشرح والتيسير والبيان والوزير بقوله: كي ننتصر على فرعون، أو كي نقيم الحجة على الناس، أو كي ننجو من بطشه، أو كي نُخرج بني إسرائيل. وكل ذلك داخل في المعنى ضمناً، لكن موسى يرتفع إلى الأصل الأعماق، فيقول: {كَيُّ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا}.

يا له من قلب! إنه لا يرى المهمة في صورتها السياسية أو الاجتماعية أو التاريخية المجردة، بل يراها في أصلها العبادي الذكري.

كأن كل ما يطلبه من شرح وتيسير وبيان ومعين إنما يطلبه ليزداد هو وأخوه ذكراً لله وتسبيحاً له في قلب المعركة، هذا مذهب؛ لأنه يعيد تعريف الرسالة كلها: ليست الغاية النهائية أن يتحرك موسى في التاريخ فقط، بل أن يتحرك بالله، والله، ومع حضور الله، حتى يكون العمل نفسه صورة من صور الذكر الكبير.

ومن هنا نفهم شيئاً عظيماً: أن الذكر في القرآن ليس بديلاً عن الفعل، بل هو الروح التي تمنع الفعل من أن يتحول إلى صراع أجوف، وأن التسبيح ليس انسحاباً من ميادين التغيير، بل هو حفظ لوجهة التغيير، حتى يبقى محوره الله، لا الغضب، ولا الثأر، ولا الأنا، ولا الرغبة في هدم الخصوم لمجرد هدمهم. فموسى لا يريد أن يدخل على فرعون بامتلاء نفسي منفصل عن الله، بل يريد أن يذهب إليه وهو يسبح الله كثيراً ويذكره كثيراً، أي إنه يريد أن تكون المواجهة نفسها مندرجة في سياق العبودية.

وهذا من أرفع ما ينبغي أن يتعلمه العاملون للحق: أن العمل إذا انفصل عن الذكر أكلته المادة، وإذا انفصل عن التسبيح ابتلعتة النفس، وإذا انفصل عن حضور الله صار يدور حول نفسه ولو رفع أقدس الشعارات. أما موسى فقد كشف لنا من البداية أن قوة الرسالة ليست فقط في برهانها، بل في ذكرها؛ ليست فقط في منطقتها، بل في صلتها بالله.

ثامناً: {إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاً بَصِيرًا} — الختام بالثقة لا بالقلق

ويختم دعاءه بقوله: {إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاً بَصِيرًا}. وهذا الختام من أرق ما يكون؛ لأنه ليس مجرد ثناء، بل هو إعلان اعتماد هادئ على علم الله، كأن موسى يقول: يا رب، أنت ترى ما لا أرى، وتعلم ما في داخلي وما أمامي، وتبصر ضعفي وحاجتي وطبيعة المهمة التي أرسلت إليها، وما دمت بصيراً بنا فليس في الطلب وحشة، ولا في الطريق تيه، لأنني مرفوعٌ إليك بعينك، مرئيٌّ لك، معروفٌ عندك.

إن من أعظم ما يسكن القلب في الطريق أن يعلم أنه لا يسير في عماية بالنسبة إلى الله، قد يجهل هو تفاصيل الطريق، وقد لا يدري ما ينتظره في المنعطف التالي، لكن الله بصير به، وبهذا وحده يهدأ الفؤاد، فالإنسان لا يحتاج دائماً أن يفهم كل شيء حتى يثبت، لكنه يحتاج أن يثق أن ربه يفهمه كله، ويراه كله، ويقدر له ما يليق به كله.

الفكرة الكبرى في هذا الفصل

إذا أردنا أن نلخص روح هذا الفصل كله في معنى واحد، فهو:

إن موسى لم يدخل الرسالة من باب الثقة بالنفس، بل من باب الافتقار الصادق إلى الله؛ ولذلك كان أقوى.

وهذا معنى قلّ من ينتبه إليه على وجهه، فالقوة الحقيقية في القرآن ليست أن تُخفي ضعفك، بل أن تعرفه وتضعه في موضعه الصحيح: بين يدي الله. والصلابة الحقيقية ليست أن تتظاهر بأنك مكتمل، بل أن تتصل بالكمال المطلق الذي يجبر نقصك، ويشرح صدرك، وييسر أمرك، ويحل عقدتك، ويجعل لك من يشد أزرك، ثم يربط ذلك كله بذكره وتسبيحه، حتى لا تنفيه في الطريق.

إن موسى هنا يقدّم لنا نموذجًا مضافًا تمامًا لكل ثقافة الاستعراض الداخلي. لا يدّعي الاكتمال، لا يخجل من طلب المعين، لا يتعامل مع اللسان بوصفه منطقة محظورة على الاعتراف، لا يطلب التأثير لذاته، لا ينظر إلى الرسالة كمنصة بطولة منفردة، بل يدخلها عبدًا يعرف أن ما بين يديه أكبر من طاقته وحده، ولذلك يرفعه كله إلى ربه، ومن هنا تبدأ الأهلية الحقيقية.

ولهذا يمكن القول: إن هذا الدعاء ليس دعاء موسى وحده، بل هو منهاج كل إنسان أراد أن يحمل معنىً كبيرًا في عالمٍ ثقيل، لأن كل واحدٍ له فرعونه الذي يواجهه بشكلٍ ما، وله موضع خوفه، وله عُقدته، وله أمره الذي يحتاج إلى تيسير، وله حاجته إلى من يشد أزره، وله حاجته الأكبر إلى أن يبقى الذكر

حاضرًا حتى لا تفسده الساحة، فمن دخل الطريق بهذا الوعي، دخل وهو يعرف أن القوة ليست فيما يملكه من نفسه، بل فيما يُفتح له من ربه.

مفتاح الفصل الثالث

يمكن أن نكتف هذا الفصل كله في العبارة الآتية:

الافتقار ليس مرحلة قبل القوة، بل هو البنية التي تُبنى بها القوة المؤمنة.

فموسى لم يقل: سأذهب ثم أطلب العون إن احتجت، بل طلب العون قبل الذهاب، لأن من عرف ثقل الأمانة عرف أنه لا يحملها منفصلاً عن الله لحظة واحدة.

لكن بعد أن شُرح صدر موسى، ويُسر أمره، وُهب أخاه وزيراً، وحُمِل الآيات، بقيت المواجهة الكبرى:

كيف يقف عبدٌ يقول: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} أمام طاغية يقول: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}؟

وهنا يبدأ أخطر فصل في القصة كلها: ليس فصل الصدام بين رجلين، بل فصل الصدام بين مركزين للوجود، بين العبودية والتأله، بين الحق الذي ينزل من السماء، والسلطة التي تريد أن تصير سماءً للأرض.

الفصل الرابع

موسى وفرعون: حين يصطدم التوحيد بنظام التأليه السياسي

ليس الصراع بين رجلين، بل بين رُبوبيَّتَيْنِ مُدَّعَاتَيْنِ: ربوبية الحق،

وربوبية الوهم

حين يبلغ القارئ هذا الموضع من قصة موسى عليه السلام، قد يظن لأول وهلة أنه أمام مواجهة بين نبيٍّ وطاغية، بين مصلحٍ وحاكم، بين داعيةٍ ومجرم، وهذا صحيحٌ في ظاهره، لكنه لا يبلغ بعدُ عمق الحقيقة القرآنية في هذا المشهد؛ لأن القرآن لا يريدنا أن نفهم فرعون على أنه مجرد شخصٍ متجبر، بل يريدنا أن نفهمه بوصفه بنيةً مكتملةً من الاستعلاء الوجودي، ونظامًا متماسكًا من اختطاف معنى الربوبية في الأرض، واستخدام السلطة والثروة والرمز والسحر والإعلام والجمهور والخوف في صناعة طاعةٍ تشبه العبادة، وإن لم تُسمَّ باسمها.

ولهذا فإن موسى عليه السلام لم يُرسل فقط إلى رجلٍ شرير، بل أُرسِلَ إلى مركز تأليه، إلى منظومةٍ تريد أن تعيد تعريف الإنسان والعالم والحقيقة والشرعية والمعنى. ومن هنا نفهم لماذا كان لا بد أن تسبق المواجهة كلُّ تلك التربية العظيمة التي مرَّ بها موسى؛ لأنه ليس يسيرًا على إنسانٍ أن يقف أمام سلطةٍ لا تكتفي بأن تحكم الناس، بل تريد أن تُحدِّد لهم من هو الأعلى، ومن يملك تعريف الخير والشر، ومن له الحق أن يُطاع بلا حدٍّ، ومن يجوز له أن يحتكر الخوف والرجاء والمستقبل والمصير.

أولاً: فرعون ليس مستبداً فقط، بل هو مشروع قلب للعالم

قال تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ}.

والعلو هنا ليس مجرد ارتفاع مكانة، بل تجاوز للحد، وخروج من مقام العبودية إلى مقام التعالي الذي لا يليق إلا بالله، فالطاغية في المنظور القرآني لا يبدأ ظلمه من السوط، بل يبدأ من العقيدة التي يحملها عن نفسه؛ من شعوره أنه أكبر من الحد، وأنه ليس واحداً من الناس في ميزان الحق، بل فوقهم، وأن وجوده ليس مقيداً بالشرع والعدل والرحمة، بل هو مصدر التحديد نفسه. ولهذا كان فرعون في جوهره حالة من الانتفاخ الوجودي قبل أن يكون حالة من الظلم السياسي.

ثم قال تعالى: {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا}.

وهنا يكشف القرآن أحد أعمدة الطغيان: التفطيت، لأن المستبد لا يكتفي بالقوة المجردة، بل يعيد تشكيل المجتمع إلى جماعات مفككة، متباعدة، متفاوتة في الامتياز والخوف، حتى لا يبقى مجتمعاً قادراً على الاجتماع على معنى واحد. فالطغيان لا يحب الناس إذا التقوا على الحق، بل يحبهم شيعاً، لأن الشيع يسهل التحكم بها، ويسهل تخويف بعضها من بعض، ويسهل إغراء بعضها ببعض، ويسهل أن تُدار بالخوف والمصلحة والامتياز. وهكذا يصير الاستبداد في القرآن ليس مجرد ظلم مباشر، بل هندسة للعلاقات الاجتماعية بما يخدم استمرار الخوف.

ثم تأتي الجريمة الكبرى: {يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ}.

وليس معنى الاستضعاف فقط أنه وجدهم ضعفاء، بل أنه يصنع ضعفهم ويعيد إنتاجه. يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويجعل من حياتهم دورة مستمرة من الرعب والإهانة والعجز، حتى لا يتبقى لهم من ذواتهم ما يؤهلهم للقيام. فالاستبداد هنا لا يقتل الأجساد وحدها، بل يعمل على تدمير القابلية النفسية والمجتمعية للمقاومة. ولذلك فإن مهمة موسى لم تكن إخراج بني إسرائيل من جغرافيا الذل فحسب، بل إخراجهم من التركيب الداخلي الذي خلفه الذل الطويل.

وهنا ندرك أن القرآن حين يقدم فرعون بهذه الطريقة، لا يقدمه كشخصية تاريخية تُزار في المتاحف، بل يقدمه ك نموذج متكرر: كل سلطة تستعلي، وتفرّق، وتستضعف، وتعيد تعريف الناس على أساس قربهم من العرش لا قربهم من الحق، إنما فيها شعبة من الفرعونية، وإن اختلفت الأسماء واللغات والأزياء والعصور.

ثانيًا: لماذا كان أول ما بُني في موسى هو التوحيد؟

لأن موسى لن يستطيع أن يواجه فرعون مواجهةً صحيحة إن رآه بحجم نفسه الذي يريده هو، بل لا بد أن يراه بحجمه الحقيقي: عبدٌ متورط في وهم الألوهية.

ومن هنا نفهم عمق البدء الإلهي مع موسى عند الطور ب: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}.

إن هذه الكلمة لم تكن فقط تأسيسًا لعبادة شخصية، بل كانت أيضًا تحريرًا لموسى من الانبهار السياسي والرغبة الحضارية، لأن من امتلأ قلبه بحقيقة:

لا إله إلا الله، لا يعود يرى الطاغية مركزاً نهائياً للمعنى، ولا مصدرًا أعلى للشرعية، ولا مالكا لمصير الكون. قد يراه مؤذياً، متجبراً، خطيراً، جباراً، لكنه لا يراه أبداً إلهاً عملياً في الوجود. وهذه مسألة دقيقة للغاية؛ لأن كثيراً من الناس قد يعلنون التوحيد بلسانهم، لكنهم في لحظات الخوف العملي يتصرفون كما لو أن بعض البشر يملكون من المعنى والمصير ما لا يملكه إلا الله.

ومن هنا فالمواجهة بين موسى وفرعون ليست فقط مواجهة حقّ وباطل، بل هي قبل ذلك مواجهة بين تصورين للسيادة:

سيادة الله التي تجعل الإنسان عبداً للحق وحده، وسيادة الطاغية التي تريد من الإنسان أن يتشكل خوفه ورجاؤه وولائه ومعياره تحت سلطان القصر.

ثالثاً: {أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} — الطغيان تجاوز الحد قبل أن يكون أذى للناس

إن التعبير القرآني بالغ الدقة: {إِنَّهُ طَغَىٰ}.

فالطغيان في أصله هو مجاوزة الحدّ، أي إن مشكلة فرعون ليست فقط أنه ظلم، بل أنه خرج أصلاً من الموضع الذي يجب أن يقف فيه الإنسان في هذا الكون، لم يعد يرى نفسه عبداً محدوداً مملوكاً لله، بل صار يرى نفسه مرجعاً أعلى، وهذا معنى شديد الأهمية؛ لأن كل فسادٍ خارجيٍّ في الأرض يبدأ من فسادٍ داخليٍّ في تعريف الإنسان لنفسه، فإذا نسي حدّه، تعدّاه، وإذا تعدّاه، لم يعد يرى للناس حرمةً مستقلة، ولا يرى للحق سلطاناً فوق سلطانه.

ومن هنا كان الطغيان في القرآن ليس مجرد ملفٍ حقوقيٍّ، بل أزمة عقديّة ووجودية؛ إنه تمرّدٌ على الترتيب الذي وضعه الله للوجود. وهذا هو سبب أن إصلاحه لا يكون فقط بإعادة التوازن السياسي، بل بإعادة التوحيد إلى مركز الحياة. لأن فرعون لم يفسد لأن نظامه الإداري كان مختلفاً فحسب، بل لأنه في العمق أراد أن يحتل موضعاً ليس له.

رابعاً: اللغة التي أمر بها موسى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}

وهنا يدهش القرآن قارئه: بعد كل ما سبق من وصف فرعون، وبعد طغيانه واستعلائه وادعائه، يقول الله لموسى وهارون: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}.

هذه الآية تحتاج إلى وقفة طويلة جداً، لأن بعض الناس يظنون أن اللين هنا مجاملة للطغيان أو تمبيع للحق، وهذا فهم سطحي؛ فاللين هنا ليس تنازلاً عن الحقيقة، بل ضبطٌ لطريقة تقديمها.

إن الله يريد من موسى أن يذهب بالحقيقة كاملة، لكن لا بذاتٍ متشنجة أو منتقمة أو مشدودة إلى رغبة الإذلال الشخصي، لماذا؟ لأن حامل الرسالة لا يُرسل ليشفي غيظه، بل ليقيم الحجة، ولا يُرسل ليعبر عن انفعاله، بل ليؤدي أمانته، والكلمة إذا خرجت من موضع العبودية كانت أقدر على بلوغ موضعها، أما إذا خرجت من موضع الحنق الذاتي، فقد تختلط فيها حرارة النفس بحرارة الحق.

والأعجب من ذلك أن الخطاب القرآني يفتح حتى مع فرعون احتمالاً: {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}. لا لأن الله يجهل ما سيكون، تعالى الله، بل لأن وظيفة

الرسول أن يدخلوا على الخلق من باب إقامة الإيمان ما بقيت الحياة. فالرسول لا يتصرف من موقع الحكم النهائي على المصائر، بل من موقع التبليغ الذي يترك أبواب الهداية مفتوحة حتى تستنفذ الحجة مداها. وهذا يربّي موسى على شيء بالغ الرقي: أن خصمه مهما علا طغيانه، يبقى أولاً مخاطباً بالحق قبل أن يصير مداناً به. وهذا يحفظ قلب الداعية من أن يتحول إلى جهاز انتقامٍ مجرد.

خامساً: خوف موسى ليس نقصاً، بل صدقٌ مع حجم المهمة

قالا: {رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}.

وهنا أيضاً يكشف القرآن عن إنسانية الرسالة. لم يقل موسى: لا أخاف شيئاً. لم يدّع البطولة المسرحية. لم يتحدث بلغةً مصطنعة تخفي حقيقة النفس. بل عبّر عن خوفه. وهذا من أجمل ما في البناء القرآني لشخصية موسى: أن الصدق لا ينفصل عن الشجاعة. فهو شجاعٌ لأنه ذهب، لكنه صادقٌ لأنه اعترف أن في النفس خوفاً من بطش فرعون. وهذه الصراحة لا تضعفه، بل تهيئه للتثبيت الرباني.

فقال الله: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}.

هذه من أعظم آيات المعية في القرآن؛ لأنها لا تقدم لموسى وهارون وعداً مجرداً بالنصر في نهاية المطاف فقط، بل تقدم لهما شيئاً أعمق: معية الحضور الإلهي في لحظة المواجهة نفسها.

{أسمع} ما يقال.

{وَأَرَىٰ مَا يُفْعَلُ}.

أي إنكما لا تدخلان وحدكما إلى هذا المشهد المرعب، إن ربكما حاضرٌ بعلمه وقدرته ونصره وتدبيره وحفظه، وهذا يغيّر كل شيء، لأن الخوف لا يزول دائماً من جهة الخطر، بل قد يزول من جهة امتلاء القلب بمن هو أعظم من الخطر. فإذا حضر الله في الوعي، انكمش الطاغية إلى حجمه الحقيقي، ولو بقي في الخارج منتفخاً كما هو.

سادساً: أول خطابٍ لفرعون — من الذي أرسل؟

قال تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ}.

يا للعظمة. ليس: رسولا الله فحسب، بل {رَبِّكَ}.

في هذه الكلمة زلزالٌ هادئ. إنها لا تبدأ بسببه، ولا بتعريته السياسية، ولا باستعراض جرائمه أولاً، بل تبدأ بضربةٍ في قلب الوهم الذي يعيش فيه: أنت لست ربّاً لنفسك أصلاً، بل لك ربّ، والذي جنّناك منه ليس قوةً منافسة لك في ساحة التوازنات الأرضية، بل هو ربك الذي خلقك وحدك ويملك مصيرك، إن هذا الخطاب لا يهاجم فرعون من أطراف صورته، بل من مركز هويته الكاذبة، فهو يريد أن يردّه من مقام الادعاء إلى مقام الحقيقة: أنت عبدٌ، وإن لبست كل تيجان الأرض.

ثم يأتي الطلب: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ}.

وهنا نرى التوحيد وهو يتحول إلى تحرير اجتماعي، فالدين في القرآن ليس فكرةً ميتافيزيقيةً محبوسة في السماء، بل إذا استقر في موضعه الصحيح

تحرك مباشرةً لتحرير الإنسان من الاستعباد. لأن الذي يعبد الله وحده لا يملك أن يرضى بأن يستعبد بشرٌ بشراً، أو أن يحتكر إنسانٌ حق مصائر جماعة كاملة. ومن هنا فإن مهمة موسى ليست سياسية بالمعنى الأرضي المجرد، وليست وعظيةً منعزلة، بل هي تحريرٌ منبثق من التوحيد.

سابعاً: جواب فرعون — الطاغية لا يناقش الرسالة أولاً، بل يحاول

ابتلاع المرسل في ماضيه

قال: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا * وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

هذا جوابٌ فرعونيٌّ بامتياز، إنه لا يواجه الرسالة في أصلها أولاً، بل يحاول تفكيك المرسل نفسياً وأخلاقياً ورمزياً، كأنه يقول: قبل أن تتكلم عن الحق، تعال نعيدك إلى ملفك الشخصي، لقد ربيناك، وقد فعلت ما فعلت، فمن أنت أصلاً حتى تخاطبنا؟ وهذه من أعرق وسائل الطغيان في كل زمان: إزاحة النقاش من الحق إلى الشخص، ومن الرسالة إلى التاريخ الخاص، ومن الحجة إلى التشكيك في أهلية حاملها.

لكن أجمل ما في ردِّ موسى أنه لم يهرب، ولم ينافق، ولم يزور تاريخه، بل قال: {فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

ما أصدق هذا الردَّ وما أنبله، إنه يعترف بما وقع، لكنه لا يسمح للطاغية أن يحتكر تفسير ماضيه، نعم، وقع مني ما وقع، نعم، خفت ففررت، لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك، بل وهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين، أي إن

الماضي الذي تريد استخدامه لإسقاطي قد دخل في سياق قدر رباني أوسع، وأنا لا أقف الآن باسم لحظتي القديمة، بل باسم ما صنعه الله بي بعد ذلك. وهذه من أعظم دروس موسى: أن الإنسان لا يُسلم تعريفه النهائي لخصومه، ولا يسمح لهم أن يجمدوه في أضعف محطات عمره، إذا كان الله قد نقله بعد ذلك إلى مقام آخر.

ثم تأتي الضربة الأخلاقية الباهرة: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}.

يا لها من جملة! إنها تقلب منطق الامتتان كله، فرعون يذكره بتربيته في القصر، فيرد موسى بأن هذه التربية نفسها لا تصلح أن تكون منّة تُستعمل لتكليم الحق، ما دامت قائمة في سياق بنية ظالمة استعبدت قومه وذبحت أبناءهم، أي إن الإحسان الجزئي لا يبرر الجريمة الكلية، وهذه قاعدة أخلاقية هائلة: أن بعض الأنظمة أو الأشخاص قد يمتنون بخير خاص قدّموه لفرد، لكن ذلك لا يمحو ظلمهم العام ولا يعطيهم حق السيطرة الأخلاقية على الضمائر، وموسى هنا يحرر الوعي من أسر الامتتان المغشوش: ليس كل ما يبدو نعمة يصلح أن يكون حجة لإسكات الحق.

ثامناً: سؤال فرعون عن الرب — ليس سؤال باحث، بل سؤال مناوٍ يريد إعادة صياغة ساحة النقاش

قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

لم يقل: من رب العالمين؟ بل قال: ما، وكأنما يريد أن يُنزل مفهوم الرب إلى حيز الأشياء التي تُعرّف في مختبرات سلطته وتصنيفاته، وهذا دقيق؛ لأن

الطاغية حين يعجز عن نفي الحق مباشرةً قد يلجأ إلى إعادة تشكيل لغة السؤال نفسها، بحيث يجرّ الحقيقة العليا إلى ميدانٍ هو يظن أنه يملك أدواته، لكن موسى لا يدخل في الفخّ، بل يجيب إجاباتٍ تعيد فتح الكون كله: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}

ثم: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}

ثم: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}.

هذه الأجوبة ليست تعريفاتٍ نظرية فحسب، بل تفكيكٌ متدرجٌ لعالم فرعون. فهو يظن نفسه مركزاً، فيأتيه موسى بالسماء والأرض، يظن الشرعية محصورةً في حضوره السياسي، فيأتيه موسى بالآباء الأولين، يظن عالمه هو المشهد كله، فيأتيه موسى بالشرق والمغرب.

إن موسى هنا لا يرد فقط على سؤال، بل يكسر القفص الإدراكي الذي أراد فرعون أن يحبس الحقيقة فيه. وهذا مهم للغاية؛ لأن من أكبر أدوات الطغيان ليس فقط القهر، بل تضيق أفق الوعي حتى يبدو العرش هو العالم، والقصر هو المرجعية، والحاكم هو مركز التاريخ. أما التوحيد فيعيد فتح النوافذ كلها دفعةً واحدة.

تاسعاً: حين يعجز الطاغية عن الحجة يلجأ إلى الاتهام، ثم إلى التهديد

قال فرعون لما انكسرت ساحته المنطقية: {إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}.

وهذه سنة متكررة: حين تعجز البنية المتكبرة عن نقض الحجة، تبدأ في نزع صفة العقل عن حاملها، لأن الاعتراف بسلامة عقله يوجب التفكير فيما يقول، أما اتهامه بالجنون فيسهل أن يعفي الجمهور من واجب النظر، فالطاغية لا يخاطب الحقيقة فقط، بل يخاطب الجمهور حولها، ويحاول أن يسبق أثرها النفسي فيهم بالتشويه.

ثم ينتقل إلى التهديد الصريح: {لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}.

هنا تسقط الأقنعة كلها، لم يعد الموضوع حواراً فلسفياً، ولا نقاشاً معرفياً، بل اتضح المركز الحقيقي للمسألة: الطاغية لا يريد فقط أن يُطاع في الإدارة، بل يريد أن يحدد للناس حتى من يحق لهم أن يتخذوه إلهاً، وهنا نبغ جوهر الفرعونية: إنها ليست فقط استبداداً بالحكم، بل استبداداً بحق تعريف العبادة والولاء والمرجعية.

ومع ذلك لا ينهار موسى، ولا يتراجع، بل يفتح باب الآية: {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ}.

كأنما يقول: هل بلغ بك العناد أنك ستغلق الباب حتى لو جئتك بالبرهان الواضح؟ وهذه شجاعة مبنية على يقين، لا على تهور، لأن موسى لا يزايد، بل يعلم ما معه من ربه.

عاشراً: ما الذي تكشفه هذه المواجهة عن طبيعة الرسالة؟

تكشف أولاً أن الرسالة الحقّة لا تكتفي بالوعظ المجرد إذا كان ثمة نظام قائم على اغتصاب الربوبية في الأرض. فلا بد أن تواجهه في مركزه.

وتكشف ثانياً أن التوحيد ليس فكرةً روحية معزولة، بل أخطر قوة تحرير في التاريخ؛ لأنه ينزع من الطغاة حقهم المتوهم في امتلاك المعنى الأخير للإنسان.

وتكشف ثالثاً أن من أهم ما يملكه أهل الحق في مواجهة الباطل: وضوح المركز. فموسى لا يناور في أصل القضايا، لأنه يعرف من أين يتكلم.

وتكشف رابعاً أن الطاغية، مهما زخرف خطابه، ينتهي غالباً إلى الشيء نفسه: تشويه المخالف، ثم تهديده، لأن منطقاً في العمق فقير، وإنما تسنده أدوات القهر لا نور الحقيقة.

أحد عشر: موسى لا يواجه فرعون وحده، بل يواجه الفرعونية الكامنة في النفوس

وهذه نقطة دقيقة جداً، فالصراع في قصة موسى ليس بينه وبين فرعون الخارج فقط، بل بينه وبين قابلية الناس للانبهار بفرعون، وقابليتهم للخوف منه، وقابليتهم لاحقاً لصناعة عجلٍ لأنفسهم بعد النجاة.

ولذلك فإن إسقاط فرعون سياسياً لا يكفي وحده، ما لم يتغير الإنسان الذي عاش طويلاً تحت سلطانه، ومن هنا نفهم أن قصة موسى أوسع من حدث المواجهة؛ إنها مشروع تطهير مزدوج: تطهير الأرض من دعوى الألوهية

السياسية، وتطهيرُ النفس من الاستعداد للارتقاء في أي صورة بديلة من صور العبودية لغير الله.

ولهذا كانت المعركة مع فرعون مرحلةً، لكنها ليست النهاية. النهاية الحقيقية هي أن يولد إنسانٌ لا يصنع فرعونًا جديدًا في داخله، ولا يحنّ إلى قيوده القديمة حين يثقل عليه طريق الحرية.

الفكرة الكبرى في هذا الفصل

يمكن أن نختصر هذا الفصل كله في المعنى الآتي:

إن موسى لم يأت ليغيّر حاكمًا فحسب، بل ليعيد ترتيب العالم حول كلمة: الله ربّ العالمين.

فما دام مركز السيادة مغتصبًا، فإن كل إصلاح جزئيّ يبقى مهددًا بالانتكاس. أما إذا عاد التوحيد إلى موضعه، عادت السياسة إلى حدّها، وعاد الحاكم عبدًا لا إلهاً، وعاد الإنسان حرًا بعبوديته لله وحده.

إن هذا هو سرّ الجلال في مواجهة موسى وفرعون: أنها ليست معركة سلطةٍ ضد سلطة، بل معركة عبوديةٍ ضد تأليه، وحقّ ضد انتفاخ، وربوبية السماء ضد وثنية القصر.

ولذلك بقيت هذه القصة حيّة في كل زمان، لأن الفرعون قد يتبدل اسمه، وقد تتغير أدواته، لكن جوهر المسألة واحد: من الذي يملك حقّ التعالي على الإنسان؟ ومن الذي يحق له أن يحدد المعنى الأخير للحق والطاعة والخوف

والرجاء؟ والجواب الذي حمله موسى، وسيظلّ يهدم كل صور الفرعونية إلى قيام الساعة، هو: الله وحده.

مفتاح الفصل الرابع

أوجزُ هذا الفصل في هذه العبارة:

الفرعونية ليست مجرد ظلم في السلوك، بل ادعاءً لمقام لا يليق إلا بالله؛ ولذلك لا يهدمها إلا التوحيد حين يتحول إلى وعي وموقفٍ وتحرير.

لكن المواجهة لا تقف عند حدود الخطاب؛ لأن الطغيان حين يعجز عن إسكات الحقيقة بالكلام، يستدعي أدواته الأخرى: السحر، والجمهور، والمشهد، والتوقيت، والتأثير البصري، وصناعة الرأي العام. وهنا نصل إلى فصلٍ مذهل من القصة:

كيف واجه موسى نظامَ الإبهار الذي صنعه فرعون؟

وما معنى أن تكون العصا آيةً في مواجهة السحر بوصفه صناعةً للوهم؟

ولماذا كان سقوط السحرة سجودًا هو أول انهيارٍ حقيقي في بنية فرعون؟

الفصل الخامس

العصا في مواجهة السحر: حين يتكسّر الوهم أمام الحقيقة

كيف واجه موسى نظام الإبهار الذي كان فرعون يحكم به العيون
والقلوب؟

من أعمق ما ينبغي أن يفهم في هذا الموضع من قصة موسى عليه السلام أن
المواجهة بينه وبين فرعون لم تكن مواجهة بين حق وباطل في مستوى الفكرة
فقط، بل كانت أيضاً مواجهة بين حقيقتين في صناعة الإدراك:

حقيقة تنبع من الله، وتملك أن تغيّر الواقع بإذنه؛

ووهم يصنعه البشر، ويملك أن يغيّر إحساس الناس بالواقع من غير أن يغيّره
في نفسه.

وهذا فرق هائل.

إن السحر في هذا السياق القرآني ليس مجرد حيلة غريبة تُدهش الأبصار،
بل هو جزء من نظام السيطرة الفرعوني؛ لأنه يعلم الناس أن ما يرونه ليس
بالضرورة هو الحقيقة، وأن السلطة تستطيع أن تلبس الوهم لباس الحقيقة
حتى ترتبك القلوب، وتنهزم النفوس، وتفقد الجماهير قدرتها على التمييز بين
ما هو كائن حقاً وما هو مُصنَّع لها في مسرح الخداع، ومن هنا لم يكن
استدعاء السحرة حدثاً جانبياً، بل كان كشفاً لجوهر الفرعونية نفسها: إنها لا

تحكم بالسوط وحده، بل تحكم أيضاً بإدارة المشهد، وبالقدرة على إخضاع العيون قبل إخضاع الأجساد.

أولاً: لماذا لم يُسقط الله فرعون مباشرة؟

قد يسأل سائل: ما دام الله قادراً على أن يُهلك فرعون بكلمة واحدة، فلماذا هذا المسار الطويل؟ لماذا الحوار، ثم الآيات، ثم السحرة، ثم البحر، ثم كل هذه المشاهد؟

والجواب أن القرآن لا يقدم فقط نهاية الباطل، بل يقدم كيفية انكشافه، لأن المقصود ليس مجرد إزالة فرعون من الوجود، بل إزالة هيبته الكاذبة من النفوس، وإظهار أن البنية التي كان يحكم بها قائمة على تضخيم الوهم، وعلى إرهاب الإدراك، وعلى صناعة الانبهار الذي يمنع الناس من رؤية هشاشته.

فلو سقط فرعون فجأة دون أن تُكشف آلياته، لبقى في وعي الناس شيء من هيبته الغامضة، وربما تحوّل موته إلى حادثة، لا إلى درسٍ كوني.

أما حين يُهزَم على مرأى من الناس، في عُقر المجال الذي ظن أنه يملكه، وحين تنقلب أدواته عليه، وحين يسجد خبراء الوهم أنفسهم للحق، فإن الباطل لا يُزال فقط، بل يُفضح، والقرآن يريد فضح الباطل بقدر ما يريد إزالته، لأن الباطل إذا لم يُفضح في الوعي قد يعود في صورة أخرى.

ثانيًا: لماذا جمع فرعون السحرة؟

قال تعالى: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ}

ثم قال في موطن آخر: {قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}.

هنا تتجلى براعة الطغيان في إدارة المعركة، فرعون لم يرد أن يواجه موسى مواجهةً نزيهةً بين دعوى ودعوى، بل أراد أن يعيد تعريف الساحة، أراد أن يحوّل النبوة إلى منافسة مهنية، وأن يحبس المعجزة في خانة السحر، حتى يصبح موسى مجرد لاعبٍ جديد داخل ملعبٍ يملكه النظام.

وهذا من أدهى أساليب الباطل: إذا جاءه الحق من خارج منطقته، حاول أن يسحبه إلى منطقته، لأن الحق إذا بقي خارج القلب الذي يفرضه الباطل أربكه، أما إذا نجح الباطل في إعادة تصنيفه، فقد يطمئن الجمهور إلى أنه ليس أمام شيء جديد، بل أمام نسخةٍ أخرى مما يعرفون.

وفرعون هنا لم يستدعِ السحرة لأنه قويٌّ مطمئن، بل لأنه قلق، وهذا معنى دقيق؛ فإن الطاغية حين يملك الحقيقة لا يحتاج إلى المسرح الضخم، أما حين يعرف في قرارة نفسه أن ما جاءه ليس من جنس ما عنده، فإنه يحاول أن يغمره بالضجيج، وبالجمهور، وبالتوقيات، وبالحشد، وبالتأطير الإعلامي، حتى يذيب أثره الأول في موجةٍ من الإبهار المضاد، ولهذا جمع السحرة من المدائن، ورتب يوم الزينة، وجمع الناس ضحى، إنه لا يقاتل موسى بالعنف فقط، بل يقاتله بصناعة اللحظة الجماهيرية.

ثالثاً: يوم الزينة — لماذا اختير المشهد العام؟

قال موسى: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}.

يا لها من لحظة قرآنية مهيبية.

موسى لا يتهرب من الجماهير، ولا يطلب زاويةً ضيقة، ولا يخاف من أن يكون المشهد علنيًا، بل يختار يوم الزينة، يوم الاجتماع، يوم الحضور الكثيف، ويختار الضحى، حيث وضوح الضوء، وسقوط الأعدار، وانكشاف الأشياء على مرأى من الناس، وهذا في غاية الدلالة؛ لأن الحق لا يخشى النور، ولا يخشى انكشافه أمام الخلق، ولا يحتاج إلى عتمة الخدع.

أما الباطل فيعيش على التداخلات، وعلى الالتباس، وعلى تهيئة النفس قبل العين، ولذلك كان اختيار الضحى كأن فيه معنى رمزيًا عظيمًا: إن الوحي يواجه السحر في وضوح النهار، لأن الحقيقة لا تحتاج إلى الظلال كي تُرى.

ثم إن يوم الزينة ليس مجرد موعدٍ زمني، بل هو لحظة تتكثف فيها روح الجماعة، الناس مجتمعون، الأنظار مشدودة، النظام حاضر، خبراء الوهم حاضرون، والساحة كاملة، وكأن الله أراد أن يكون انكشاف السحر ليس في معزلٍ عن المجتمع، بل في قلب المجتمع، حتى لا تبقى الحجة حبيسة النخبة، ولا يقال: لعل شيئاً جرى في الخفاء، إنها لحظة يريد القرآن أن يجعلها انقلاباً في الوعي العام، لا مجرد تفوقٍ موضعيٍّ في مباراة.

رابعاً: السحرة أنفسهم — لماذا كانت هزيمتهم هي الضربة الأقسى
لفرعون؟

قال تعالى: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}

وقالوا: {أَنِّ لَنَا لَآجِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}

قال: {نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}.

هذه اللحظات الصغيرة تكشف البناء العميق للمشهد، إن السحرة لم يدخلوا أولاً بوصفهم باحثين عن الحقيقة، بل بوصفهم جزءاً من اقتصاد السلطة: أجر، قرب، حظوة، مكانة، فهم لا يتحركون في فضاء المعرفة الخالص، بل في فضاء الامتيازات التي يوزعها النظام، وهذا مهم جداً؛ لأن القرآن يريدنا أن نفهم أن الوهم لا يقوم وحده، بل يقوم معه شبكة مصالح، فثمة دائماً من يتكسب من بقاء الصورة الكاذبة على حالها، ومن يصير خبيراً رسمياً في خدمة الباطل، ومن يربط قدره الوظيفي ببقاء الطاغية متماسكاً في عيون الناس.

لكن عظمة المشهد أن الذين جيء بهم ليحموا الوهم كانوا هم أنفسهم أول من عرف أن ما أمامهم ليس وهمًا، ولماذا؟ لأن أهل الصنعة أعراف الناس بحدود صنعتهم، إن عامة الناس قد تلتبس عليهم الحيلة والمعجزة، لكن المتخصص لا يلتبس عليه ذلك حين يبلغ الأمر حدًا لا تبلغه أدواته.

ومن هنا كانت سجدة السحرة من أعظم براهين القصة؛ لأنها ليست سجدة جماهير انخدعت بمشهد أقوى، بل سجدة خبراء أدركوا على الفور أن هذا ليس من جنس ما يصنع البشر.

خامساً: {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ} — السحرُ يستهدف الإدراك أولاً

قال تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ}.

هذه الآية من أعمق الآيات في فهم منطق الباطل. فهي لا تقول فقط إنهم جاءوا بخداع، بل تصف بدقة طريقة عمله:

سحروا أعين الناس: أي إنهم عبثوا بالإدراك، لم يغيروا الحقيقة في ذاتها، بل غيَّروا كيفية تلقي الناس لها.

واسترهبوهم: أي إنهم لم يكتفوا بالإبهار، بل أضافوا إليه الرهبة؛ لأن العين إذا ارتبكت والخوف دخل عليها تضاعف تأثير الوهم.

وجاءوا بسحر عظيم: أي إن النظام بلغ درجةً عالية من الاحتراف في إدارة الخداع.

وهنا نصل إلى معنى معاصر جداً في البنية القرآنية: إن كثيراً من الباطل لا ينتصر لأنه يملك الحقيقة، بل لأنه يملك القدرة على إرباك الإدراك الجمعي. يصنع صورةً، ويكررها، ويحيطها بهيئةٍ، ويربطها بالخوف، ثم يترك الناس يتلقونها بوصفها واقعاً.

والسحر في هذا المعنى ليس مجرد طقس قديم، بل هو نموذجٌ لكل ما يشتغل على تشكيل الوعي حتى يرى الناس غير الواقع واقعاً، وغير الحق حقاً. ولهذا كان لا بد أن تأتي العصا الإلهية لا لتبهر العين فقط، بل لتعيد العين إلى ميزان الحقيقة.

سادساً: خوف موسى من مشهد السحر — لماذا سجّل القرآن هذا؟

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى}.

هذا من أبداع المواضع في القصة، لأن القرآن لا يجمّل النبوة بصورة البطولة الجامدة التي لا تضطرب لحظة. إن موسى رأى المشهد عظيمًا، ورأى الحبال والعصي تخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة. وهذا ليس نقصًا فيه، بل من تمام صدقه الإنساني، ومن تمام حكمة القرآن في تربية القلوب؛ إذ يعلمنا أن الثبات لا يعني غياب الشعور بالرهبة، بل يعني ألا يحكمك هذا الشعور حين يأتيك تثبيت الله.

فقال له ربّه: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}.

ما أعظم هذه الكلمة.

لم يقل له: لا تخف لأنه لا يوجد شيء، بل المشهد موجود، والإبهار حاضر، والجمهور يرى، والسحرة ماهرون، لكن قال له: {إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}. أي إن علوّ الحقيقي ليس علوّ المشهد، ولا علوّ الضجيج، ولا علوّ عدد المشاركين، ولا علوّ السلطة التي ترعى الاستعراض، بل علوّ المصدر، ما دام الذي معك من الله، فأنت الأعلى وإن بدا المشهد لحظةً لغير ذلك، وهذه من أعظم ما يحتاجه المؤمن في كل زمان: أن يعرف أن الحق قد يبدو في لحظة محاصرًا بالصوت والصورة والجمع، لكن علوّه لا يقاس بالانتفاخ الظاهري، بل بأصله واتصاله بالله.

سابعًا: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ} — لماذا لم يقل: العصا؟

قال تعالى: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا}.

وهنا أيضًا لطيفة قرآنية أسرة، لم يقل: ألق العصا، بل قال: {مَا فِي يَمِينِكَ}. كأن الوحي يعيد موسى إلى البساطة الأولى، ليس المطلوب منك أن تعتمد على ضخامة الأداة، بل على الأمر الإلهي الذي يجعل مما في يدك آية. وكأن الآية تقول له: لا تنظر إلى ما معك بعين مادته، بل بعين اتصاله بربك، فما في يمينك في ذاته عصا، لكن إذا تعلقت به كلمة الله صار من شأنه أن يلقف كل ما صنعوا.

وقوله: {تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا} بليغ جدًا، لأن القرآن سمى ما عند السحرة صنعًا، أي أمرًا مصنوعًا، مركبًا، مُعَدًّا، مُنْتَجًا بمهارة بشرية.

أما ما مع موسى فليس من جنس الصناعة البشرية، بل من جنس الآية الإلهية. وهنا ينكشف الفرق الحاسم:

السحر يُصنع.

والوحي يخلق أثرًا بأمر الله.

السحر يرتب الوهم.

والآية تكشف الحقيقة.

ثم يقول سبحانه: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}.

هذه ليست فقط جملةً عن سحرة فرعون، بل قانونٌ من قوانين الوجود: أن الكيد مهما بلغ في حبه، ومهما اكتمل في تقنياته، ومهما زُود بالجمهور والرعاية والنفوذ، فإنه يبقى كيداً، لا خلقاً، ويظل محدوداً بحدود الصنعة البشرية، ولذلك لا يفلح في النهاية. قد يربك، قد يؤخر، قد يخدع الأبصار، قد يسترهب الناس، لكنه لا يملك الفلاح الحقيقي، لأن الفلاح ثمرة الحق، لا ثمرة التلاعب بالإدراك.

ثامناً: لماذا سجد السحرة فوراً؟

قال تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}.

تأمل التعبير: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا}. كأن السجود لم يكن فعلاً متدرجاً جاء بعد نقاشٍ طويل، بل كان استجابةً اجتاحتهم اجتياحاً، وألقتهُم إلى الأرض إلقاءً، لأن الحقيقة حين انفجرت في وعيهم لم تترك لهم ترف التباطؤ، لقد رأوا الحدود القصوى لما يعرفون، ثم رأوا ما تجاوزها، فعرفوا أن المقام مقام خضوعٍ لا مقام مساومة.

وهنا نبلغ نقطة من أرقى نقاط القصة: أن أول من سجد لم يكونوا المستضعفين من بني إسرائيل، ولا جمهور الناس المرهق، بل أهل الخبرة الذين جاءوا أصلاً لمحاربة موسى، وهذا يعني أن الحق يملك أحياناً من الوضوح ما يخرق حتى شبكة المصالح حين تبلغ لحظة التجلي ذروتها.

نعم، المصالح قد تُعْمِي طويلاً، لكن إذا انكشفت الحقيقة لبعض القلوب على وجهٍ مباشر، فقد تنهار أمامها حسابات الأجر والقرب والامتياز دفعةً واحدة.

ولم يقولوا: آمنا بالله فقط، بل قالوا: {بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}.

وفي هذا إعلان شجاع جداً؛ لأنهم يربطون أنفسهم علناً بالمصدر الذي جاء منه هذان الرسولان، في قلب المشهد العام، وأمام فرعون نفسه، لقد خرجوا من رعاية القصر إلى ربوبية الله في لحظة، وهذا هو الإيمان حين يولد حقاً: لا يولد كفكرة محايدة، بل ك انقلاب ولاء.

تاسعاً: لحظة انكسار فرعون الحقيقية

الناس يظنون أن انكسار فرعون وقع عند الغرق فقط، لكن الحقيقة أن الانكسار المعنوي الأعمق وقع هنا، يوم سجد السحرة. لماذا؟ لأن السحرة كانوا جزءاً من آلهته، من عرضه، من هيئته، من مشهده المصنوع. فلما انقلبوا عليه في قلب المسرح الذي أعده، حدث شيء بالغ الخطورة: انهار احتكار النظام لتفسير الواقع. لم تعد السلطة وحدها هي التي تقول للناس ما يرون، بل قام أهل الصنعة أنفسهم يقولون: هذا حق. وهذه ضربة لا تحتلمها الأنظمة القائمة على إدارة الإدراك، لأنها قد تخسر معركة ثم تعوضها، أما إذا خسرت شرعية سرديتها، فذلك بداية التفكك الحقيقي.

ولهذا جاء رد فرعون مذعوراً، مضطرباً، متخبطاً: {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}.

يا للعجب!!

حتى الإيمان يريد أن يحتكره بإذنٍ منه، حتى انتقال القلب إلى ربه يريد أن يمرّ عبر تصريح السلطة. وهذه منتهى الفرعونية: أن ترى لنفسك حق

الترخيص للضمائر، ومن هنا يظهر أن المسألة لم تكن يوماً سحرًا في مقابل سحر، بل كانت صراعًا على من يملك حقَّ تعريف الحقيقة في النفوس.

ثم زاد فقال: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}.

إنه الاتهام المعتاد حين يعجز الباطل: لا يقرّ بالانكشاف، بل يعيد تفسيره بوصفه مؤامرة، لأن قبول الحقيقة أصعب عليه من اختراع كذبة تلمّ شتات صورته، وهذا من طبائع الأنظمة المتضخمة: حين تهزمها الحقيقة لا تقول: أخطأنا، بل تقول: تأمرتم.

عاشراً: لماذا لم يرجع السحرة بعد التهديد؟

قال لهم فرعون: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ}.

فقالوا: {لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}.

يا له من انقلاب هائل، قبل قليل كانوا يطلبون الأجر والقرب، والآن صاروا يرون تهديد فرعون محصوراً في هذه الحياة الدنيا. ما الذي جرى؟

الذي جرى أن الحقيقة إذا دخلت القلب على وجهها الصحيح صغرت الدنيا. وما كان يرعبهم قبل الإيمان صار بعده محدوداً، لأنهم لم يعودوا يرون فرعون في موضع الربوبية العملية، لقد تحرروا من سحرٍ أعمق من سحر الحبال والعصي: تحرروا من سحر السلطة على النفس. وهذا هو الانتصار الحقيقي.

ثم تأمل قولهم: {لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا}.

إنهم لا يتحدثون فقط عن مشهدٍ بهرهم، بل عن بيِّناتٍ أيقظت فيهم صلتهم بالفاطر، فالمعجزة الحقة لا تقف عند حدود الإدهاش البصري، بل تعيد الإنسان إلى أصله، إلى فطره، إلى معنى وجوده.

ولهذا لم تكن العصا أعظم لأنها أكلت حبالهم، بل لأنها أكلت الوهم الذي كان يحجبهم عن ربهم.

**أحد عشر: العصا ليست رمزَ القوة فقط، بل رمزُ الحقيقة البسيطة التي
تلتهم التعقيد المفتعل**

وهذه من ألطف الإشارات التأملية في هذا الفصل.

السحر جاء مركبًا، جماعيًا، منظمًا، مدعومًا، محشودًا، محسوب التوقيت، مهيبًا للجمهور.

أما موسى فجاء بما في يمينه.

من ظاهر الصورة يبدو الفرق هائلًا في صالح السحرة، لكن الحقيقة أن الحق ليس محتاجًا إلى هذا التعقيد كله، لأنه يتصل بالمصدر الأعلى.

ولهذا كانت العصا في بساطتها الظاهرة أقوى من كل ذلك التركيب، وكأن في المشهد درسًا دائمًا: أن الباطل كثيرًا ما يتضخم لأنه فارغ، فيحتاج إلى الزينة والتراكم والضجيج والتأثير، أما الحق فقد يأتي في صورة أبسط، لكن بساطته تخفي وراءها اتصالًا بالله يجعلها أرسخ من كل زخرفة.

اثنا عشر: المعنى الأكبر للفصل

إذا أردنا أن نصل إلى قلب هذا الفصل، فإننا نقول:

إن معركة موسى مع السحرة لم تكن معركةً لإثبات قدرة خارقة فحسب، بل كانت معركةً لتحرير الوعي من الوهم الذي يُدار به الناس.

فالسحر هنا عنوانٌ لكل قوةٍ تتلاعب بالإدراك، وتربط الوهم بالخوف، وتستثمر الجمهور لإعادة إنتاج الكذب بوصفه واقعًا. والعصا هنا عنوانٌ للحقيقة حين تأتي من الله، فتبتلع لا الأشياء المصنوعة فقط، بل المنطق الذي صنعت به. ولهذا كان سجود السحرة أول انتصارٍ عظيم لموسى، لأنه لم يكشف فقط أن معه الآية، بل كشف أيضًا أن خبراء الوهم أنفسهم يعرفون، في أعماقهم، أن الوهم محدود، وأن الحقيقة إذا حضرت لا تملك الصنعة إلا أن تنحني لها.

مفتاح الفصل الخامس

يمكن تلخيص هذا الفصل في العبارة الآتية:

الباطل ينتصر أولاً إذا نجح في سحر العيون، والحق ينتصر حقًا حين يعيد للعيون قدرتها على رؤية الحقيقة.

فالعصا لم تهزم السحر فقط، بل هزمت النظام الذي كان يربّي الناس على أن الوهم هو الواقع.

لكن بعد أن انكشف السحر، وسقط خيراؤه ساجدين، وبدا أن الحجة قد بلغت منتهاها، لم يسقط فرعون مباشرة، بل مضى في عناده، ثم جاءت لحظة أخرى أشد مهابة:

الخروج ليلاً، والبحر أمامهم، وفرعون وراءهم، والناس يقولون: {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ}، وموسى يقول: {كَأَنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

وهنا يبدأ فصل من أعظم فصول الإيمان في القرآن:

كيف يصير المستحيل طريقاً؟

وكيف يكشف البحر الفرق بين من يرى الأسباب وحدها ومن يرى رب الأسباب؟

ولماذا كان الانفلاق أعظم من النجاة نفسها؟

الفصل السادس

البحرُ حينَ يصيرُ طريقًا: كيف يُربي الله عباده على أن الهداية قد تخرجُ
من قلب الاستحالة؟

{كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}

إذا كان مشهدُ السحرة قد كشف أن الوهم مهما تعاظم يمكن أن تبتلعه الحقيقة،
فإن مشهد البحر يكشف أمرًا آخر أعمق وأشدّ التصاقًا ببناء الإيمان: أن
الحقيقة نفسها حين تصير أمام امتحان الواقع المادي الخائق، لا يبقى السؤال:
هل نؤمن أم لا؟ بل يصير السؤال: كيف نؤمن حين تُغلق الأسباب أبوابها
كلها في وجوهنا؟

وهنا تبلغ قصة موسى عليه السلام ذروة من ذرى التربية القرآنية؛ لأننا لا
نكون أمام طاغية يجادل، ولا أمام سحرة يخدعون، بل أمام لحظة تبدو فيها
الهزيمة منطقية تمامًا بحسب كل المقاييس الأرضية.

البحر أمامهم.

وفرعون وراءهم.

والقوم مرهقون.

والخروج تم في ظرف اضطرابٍ واستنفار.

والمشهد كله يقول بلسان الحسن: انتهى الأمر.

لكن القرآن لا يريد من هذه اللحظة أن تكون مجرد حكاية نجاة عجيبة، بل يريد أن تكون مدرسة في إعادة تعريف الممكن، لأن كثيراً من الناس يظنون أن الإيمان يظهر فقط حين يكون الحق واضحاً والآية ساطعة، أما القرآن فيعلمنا أن الإيمان يبلغ جوهره الحقيقي حين تقف بين جدارين من الاستحالة، ثم يبقى في قلبك موضع لم ينهدم بعد، موضع لا يرى المخرج بعد، لكنه لم يفقد اليقين بأن للمخرج رباً.

أولاً: لماذا جاء الخروج في صورة المطاردة لا في صورة الانتقال الهادئ؟

قال تعالى: {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ}.

هذه الآية بالغة العمق؛ لأن الله لم يعد موسى بخروج هادئ آمن منذ لحظته الأولى، بل أخبره ابتداءً أن هذا المسير سيكون مطارداً، أي إن النجاة لن تأتي في صورة طريق مفروشٍ بالسكينة الظاهرة، بل ستأتي وهي محاطة بضغطة، وقلق، واستنفار، وملاحقة.

وهذا من دقائق التربية الإلهية؛ لأن الله لا يربّي أوليائه دائماً بأن يرفع عنهم كل صور الخوف أثناء الطاعة، بل قد يأمرهم بالسير في قلب الخوف نفسه، حتى يتربى فيهم نوع آخر من اليقين: يقين من يتحرك مع الله لا لأن الطريق مريح، بل لأن الأمر من الله.

وفي هذا درسٌ بالغ، كثير من الناس يربطون صحة الطريق بسلاسته المباشرة، فإذا وجدوا فيه ارتباكاً أو تهديداً أو قلقاً ظنّوا أن الأمور ليست مستقيمة، لكن قصة موسى تكشف أن الطريق الحق قد يبدأ على هيئة استنفارٍ كامل، وأن العبرة ليست بشكل الطريق في الحس، بل بمصدر الأمر الذي

تسير به، فما دام الله هو الذي قال: {فَأَسْرِبْ بَعْدَ بَدِي}، فإن المطاردة لا تنقض صحة المسير، بل قد تكون هي المسرح الذي ستظهر فيه عناية الله على أتم وجوها.

ثانيًا: لماذا قال: {بَعْدَ بَدِي}؟

في هذا الموضع من أرق أسرار القصة، لم يقل: فأسر ببني إسرائيل، مع أن السياق عنهم، بل قال: {بَعْدَ بَدِي}.

كأن الله، في لحظة الخطر الأعظم، يعيد تعريف الجماعة أولًا لا بوضعها الاجتماعي، ولا بتاريخ استضعافها، بل بنسبتها إليه.

وهذا في غاية الجلال؛ لأن الإنسان حين تحاصره الأخطار يحتاج قبل معرفة المخرج إلى معرفة موقعه عند الله، فالله لم يقل لموسى: أسر بهذا الجمع المضطرب فقط، بل أسر بعبادي، أي إن الذين يسرون معك ليسوا كتلة بشرية ضائعة في الصحراء، بل قوم لهم رب، ومن كانت له هذه النسبة لم يكن متروكًا وإن بدا محاصرًا.

وهذا يعلمنا أن العبودية ليست فقط تكليفًا تعبديًا، بل هي أيضًا أشرف أغذية الحفظ، قد تكون مستضعفًا في عين العالم، مطارداً في عين السياسة، مرهقاً في عين الواقع، لكن إذا كنت في الحقيقة عبداً لله، فقد دخلت في رعاية أعلى من كل التحليلات الظاهرة، ولهذا كان التعبير: {بَعْدَ بَدِي} يسكب في المشهد كله سكينه خفية؛ لأن المطاردة مهما اشتدت، لا تقع على قوم منفلتين من يد الله، بل على قوم ينتسبون إليه.

ثالثًا: {إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ} — لماذا يخبرهم بالخطر قبل وقوع الخلاص؟

لأن الله لا يريد أن يبني الإيمان على المفاجأة وحدها، بل على الاستعداد الواعي. إنك متَّبَعُونَ. أي إن المواجهة قادمة، والضغط آتٍ، واللحظة الفاصلة ستقع. وهذا من رحمة الله؛ لأنه لا يدفع أوليائه إلى المشهد الكبير وهم مخدَّرون بوهم السهولة، بل يصارحهم بحقيقة ما ينتظرهم، حتى إذا جاء الخطر لم ينهدموا نفسيًا من عنصر المباغته. وهكذا نرى في تربية موسى أن الوحي لا يربِّي على التهوين الكاذب، بل على البصيرة التي تعرف ثقل الطريق ومع ذلك تمضي.

وهذا أيضًا من أعظم ما يحتاجه المؤمنون في كل زمان: ألا يختزلوا الوعد الإلهي في تخيلٍ طفوليٍّ لمسار الأحداث، كأن الوعد يعني انتفاء التوتر تمامًا. لا. الوعد قد يمرّ عبر التوتر نفسه، وقد يكون بعض تمام الوعد أن ترى الخطر مقبلاً، ثم ترى كيف يعجز أمام تدبير الله.

إن الإيمان لا ينمو فقط حين تُخفى عنك المخاطر، بل ينمو أكثر حين تعرفها، ثم ترى أنها ليست آخر الحقيقة.

رابعًا: لحظة الإدراك: {فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ}

قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ}.

هذا التعبير وحده يكاد يصنع المشهد كله. ليس مجرد قربٍ خبريٍّ، بل تراءٍ: كل فريقٍ رأى الآخر. سقطت المسافة التي كانت تسمح بشيءٍ من التأجيل النفسي، وصار الخطر مرئيًا، وصار البحر مرئيًا، وصارت اللحظة من ذلك

النوع الذي لا يملك فيه الإنسان أن يؤجل حكمه على الواقع. هنا لا يعود التهديد احتمالاً، بل مشهداً حاضراً للعين. وهنا تنكشف البواطن.

ولهذا قال أصحاب موسى: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}.

هذه الجملة ليست جبناً أخلاقياً بقدر ما هي ترجمة منطقية جداً لما تراه العين. وهم بشرٌ خرجوا من تاريخ طويل من الاستضعاف، ولم تتكوّن في نفوسهم بعدُ أهلية الثبات المستقرّ.

ومن هنا فهذه الكلمة تكشف لا عن ضعف اللحظة فقط، بل عن تراث الذلّ القديم داخل النفس، فالإنسان الذي طال عهده بالقهر يميل إلى تفسير الوقائع من داخل ذاكرته المنكسرة، لا من داخل الوعد الذي يسمعه.

ولذلك لم يقولوا: لعل الله يجعل لنا فرجاً. بل قالوا سريعاً: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}. أي إنهم حكموا بمنطق الحسّ المحض، وبمنطق التجربة الماضية مع الطغيان.

وهذا من أعظم ما تكشفه القصة: أن الخروج من سلطة فرعون جغرافياً لا يعني أنك خرجت منه نفسياً. قد تغادر القصر، لكن يبقى في داخلك شيء من هيئته. قد تنجو من الذبح، لكن لا يزول فوراً من وجدانك الشعور بأن القوة دائماً له، وأنت دائماً الحلقة الأضعف، ولهذا كان البحر امتحاناً مزدوجاً: امتحاناً للنجاة، وامتحاناً للعقل الذي ما يزال يقرأ العالم بعين العبودية للخوف.

خامساً: كلمة موسى: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}

هنا نصل إلى واحدةٍ من أعظم الكلمات في القرآن، لا لأنها فقط ردت على لحظة يأس، بل لأنها أعادت تعريف الوجود كله في جملة واحدة.

{كَلَّا}.

أي ليس الأمر كما حكمت. ليس ما ترونه بعيونكم هو آخر الكلمة. ليست المغالبة الحسية هي الحقيقة الكاملة. ليست المعادلة مغلقة كما تظنون. وهذه الـ {كَلَّا} ليست نفياً عاطفياً، بل نفياً صادراً عن يقينٍ له أصلٌ سابق: موسى لا ينبغي لأن طبعه متفائل، بل لأن قلبه مربوطٌ بخبرٍ أقدم وأعمق من هذه اللحظة.

ثم قال: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي}.

تأمل هذا الترتيب. لم يقل: إن ربي معي فقط، مع أن المعنى قريب، بل قال: {مَعِيَ رَبِّي}. وفي هذا من الأنس والاختصاص والالتصاق ما فيه. إنه لا يستحضر فكرةً لاهوتيةً عامة، بل يستحضر ربّه استحضارَ صحبةٍ ومعيةٍ وولاية. وكأن كل ما في الخارج من بحرٍ وفرعون وجندٍ قد انزاح إلى الهامش في وعيه، وبقي الأصل الثابت: ربي معي.

وهنا يظهر الفرق الهائل بين المؤمن وغيره في لحظة الأزمة، غير المؤمن يحسب العناصر المحيطة به، ثم يستنتج مصيره منها.

أما المؤمن فيبدأ من معية الله، ثم يعيد قراءة العناصر كلها على ضوء هذه المعية، ولهذا لم يقل موسى: ربما نجد حلًا، أو لعل شيئًا يحدث. بل قال: {سَيَهْدِينِ}.

بثقةٍ مستقبلية قاطعة، لا يعرف تفصيلها بعد، لكنه يعرف صاحبها، وهذه من أعلى درجات اليقين: أن لا تعرف الطريق بعد، لكنك تعرف يقينًا أن الله سيهديك إليه.

سادسًا: لماذا قال: {سَيَهْدِينِ} لا: سينجيني؟

وهذا من أبدع مواضع التأمل في الآية.

موسى لم يقل: إن معي ربي سينقذني، أو سيهلكهم، أو سيفلق البحر، بل قال: {سَيَهْدِينِ}. والهداية هنا أوسع من النجاة؛ لأنها تدل على أن المطلوب ليس مجرد الخروج من الخطر، بل إيجاد الطريق الصحيح داخل الموقف المغلق، فالنجاة قد تكون نتيجة، لكن الهداية هي المنهج الذي يوصل إليها.

وكأن موسى يعلمنا أن المؤمن في المواقف الحرجة لا ينتظر فقط تدخلًا يرفع عنه الخطر رفعًا آليًا، بل ينتظر من الله أن يفتح له المخرج الذي يليق بالحكمة، وهذا أرقى؛ لأن فيه تسليمًا ضمنيًا بأن الله تدبيرًا، وأن المطلوب من العبد ليس فرض صورة معينة للنجاة، بل الوثوق بأن الله سيهديه إلى ما ينبغي أن يكون.

ومن هنا فـ {سَيَهْدِينِ} تختزن معاني كثيرة: سيعلمني ماذا أفعل، سيكشف لي الوجهة، سيفتح ما أغلق، سيخرج الطريق من حيث لا طريق، سيظهر

المعنى حين تتعطل المقاييس، إنها كلمة تجمع بين اليقين والتسليم، بين الثقة والافتقار، بين الحركة وانتظار الإذن.

سابعًا: الأمر بالعصا — لماذا تعود العصا هنا مرة أخرى؟

قال تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ}.

مرة أخرى: العصا.

ليست سيفًا، ولا جيشًا، ولا جسرًا، ولا عدة بحرية، بل عصا. وهذا التكرار للعصا في مواضع التحول الكبرى في القصة ليس عبثًا، بل يحمل دلالة تأملية عظيمة: أن الله يريد أن يربّي موسى والأمة من خلفه على أن القدرة الإلهية لا تحتاج إلى الأدوات التي يظنها الناس لازمة للصورة.

فالبحر في الحسّ لا يُضرب بعصا ليصير طريقًا، لكن الله يريد أن يخلخل في وعينا الوثنية الخفية للأسباب، لا بإلغائها مطلقًا، بل بإظهار أنها تعمل فقط إذا أذن الله، وأن ما يبدو غير مناسب في عين الحس قد يصير هو بالذات وعاء الأمر الإلهي.

والعجيب أن الضرب بالعصا ليس في ظاهره عملاً ذا تناسبٍ مع النتيجة. أي إن الفعل المطلوب من موسى ليس فعلًا “معقول النتيجة” بحسب الحسّ. وهذا يربّي معنى عظيمًا: أن العبد قد يُؤمر بالفعل الذي يبدو رمزيًا أو بسيطًا أو غير متناسبٍ مع حجم الأزمة، لكن قيمته ليست في صورته الحسية، بل في كونه موضع امتثال للأمر الإلهي.

فالذي فلق البحر في الحقيقة ليس الخشب، بل أمر الله؛ غير أن الله شاء أن يربط المعجزة بامتثال عبده، ليبقى للإنسان شرفُ الطاعة في لحظة ظهور الفرج.

ثامناً: {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}

يا لرهبة هذه الآية.

لم يقل فقط: فانشقّ، بل قال: {فَانْفَلَقَ}؛ والانفلاق أشد وأوضح وأعظم في التكوين، ثم قال: {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}. أي إن الماء لم ينزح نزحاً بسيطاً، ولا تكوّن منه مجرد ممرّ هشّ، بل صار على الجانبين كالجبل العظيم، وكأن الله لم يفتح طريقاً فحسب، بل أقام على جانبيه شاهدين هائلين على القدرة، حتى يمشي القوم في قلب ما كان منذ لحظةٍ عنصرٍ استحالة، ثم صار الآن بناءً شامخاً يحيط بهم وهم آمنون.

وهنا يتجلى أحد أعظم المعاني: أن الله لا يفتح الطريق دائماً بإزالة العائق من الوجود، بل قد يفتحه بتحويل العائق نفسه إلى جزء من الطريق. فالبحر لم يختفِ، بل بقي حاضراً، لكنه تغيّر من صورة المانع إلى صورة الممرّ. وهذه من سنن الله البديعة في الحياة: أحياناً لا يزيح الشيء الذي يخنقك من المشهد كله، بل يعيد تشكيله على نحوٍ يجعل منه معبراً إلى النجاة. وهكذا يتعلم الإنسان ألا يحصر الفرج في صورةٍ واحدة يتخيلها.

تاسعًا: لماذا كان لا بد أن يدخلوا البحر؟

لأن النجاة هنا ليست مجرد خلاصٍ من المطاردة، بل تربيةً على العبور.

لو نجا بنو إسرائيل من غير أن يمرّوا في قلب البحر، لبقى الحدث فرجًا خارجيًا فحسب. أما أن يُدخلهم الله بين جداري الماء، فهذا نقلٌ لهم من النجاة إلى إعادة تشكيل الوجدان. إنهم يمشون الآن في المستحيل وقد صار واقعًا. تمشي الجماعة التي قالت قبل قليل: {إِنَّا لَمُذْرَكُونَ}، فإذا بها تعبر في قلب ما كان عنوان الإدراك والهلاك. وهذا ليس مجرد إنقاذ، بل علاجٌ نفسيّ ربانيّ لذاكرة القهر. كأن الله يقول لهم: لا أريد فقط أن أخلصكم من فرعون، بل أريد أن أزرع في ذاكرتكم شهادةً لا تنسونها أبدًا: أنني إذا شئتُ جعلتُ من البحر بيسًا، ومن المانع طريقًا، ومن الاستحالة معبرًا.

ومن هنا نفهم لماذا كان هذا الحدث مرجعًا متكررًا في القرآن. لأنه ليس مجرد معجزة تاريخية، بل نموذج تأسيسى لوعي المؤمن: كلما رأيت البحر مغلقًا، فتذكر أن ربك ليس محكومًا بشكل البحر.

عاشرًا: {وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ} — ماذا يعني أن يُقَرَّبَ فرعون إلى موضع هلاكه؟

قال تعالى: {وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ}.

أي قَرَّبنا هناك الآخرين، وهم فرعون وجنده، وهذه الآية بالغة الدلالة؛ لأنها تكشف أن الطاغية أحيانًا لا يُدفع إلى هلاكه دفعًا قسريًا من خارج فقط، بل يُقَرَّب إليه وهو يظن أنه يقترب من نصره، وهذا من أعمق وجوه المكر الإلهي بالطغاة: أنهم يقرأون المشهد بعين الانتشاء، بينما هم في الحقيقة

يُساقون إلى الموضع الذي ستتكشف فيه نهايتهم. فالذي رأى البحر طريقًا لموسى، رآه فرعون أيضًا طريقَ مطاردة، ولم يدرك أن المسافة نفسها التي قطعها أولياء الله نجاةً، سيقطعها هو هلاكًا. وهنا يتجلى أن الشيء الواحد قد يكون لأهل الإيمان باب رحمة، ولأهل الطغيان باب عقوبة، بحسب الموقع من الله.

وهذا يعلمنا أن الطاغية ليس دائمًا واعيًا بلحظة سقوطه، قد يظن أنه في ذروة إحكامه، بينما تكون أسباب هلاكه قد اكتملت حوله، ولذلك فإن الثقة الزائدة عند أهل الباطل ليست دليلًا على صلابتهم، بل كثيرًا ما تكون جزءًا من استدراجهم.

أحد عشر: {وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ} — لماذا هذا التأكيد؟

لأن النجاة هنا لم تكن جزئية ولا انتقائية، بل شملت الجماعة كلها: {أَجْمَعِينَ}. وهذا مهم جدًا، لأن الله لم يُرد أن تكون المعجزة انتصارًا فرديًا لموسى، بل خلاصًا جماعيًا لقومٍ كاملين.

فالرسالة لا تكتمل بنجاة القائد وحده، بل بأن يعبر معه من كُتب لهم العبور. وفي هذا معنى بديع: أن موسى لم يكن يحمل خلاص نفسه، بل يحمل ممرَ أمة، ولذلك كانت المعية التي استند إليها في قوله: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي} ذات أثرٍ امتدَّ إلى الجماعة كلها، لأن يقين القائد حين يكون موصولًا بالله لا يبقى أثره محصورًا في داخله، بل يتحول إلى باب نجاةٍ لمن معه.

وهذا من أسرار القيادة المؤمنة: أنها لا تملك فقط رؤية المخرج لنفسها، بل تفتح به للناس مخرجًا. ولهذا لا تكون عظمة موسى في أنه قال الكلمة العظيمة فحسب، بل في أن هذه الكلمة صارت جسر عبورٍ لأمةٍ بأكملها.

اثنا عشر: الغرق — متى انهار الوهم نهائيًا؟

قال تعالى: {ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ}.

تأمل هذا الإيجاز المهيّب، كل ذلك الانتفاخ، وكل تلك الدعوى، وكل ذلك البطش، وكل تلك الجموع، ثم النهاية في كلمة: {أَعْرَفْنَا}.

وهنا يتحطم الوهم الأخير: وهم الديمومة. إن الطاغية، مهما طال أمده، ومهما خُيِّل للناس أن نظامه قدرٌ لا يُكسر، يبقى في قبضة الله أهون من أن يقال في شأنه أكثر من هذا الإيجاز، وكأن القرآن يريد أن يعلم المؤمنين ألا يضخموا الباطل في وعيهم أكثر مما يضخمه الله في سنة إهلاكه.

فالباطل قد يملأ مساحةً هائلة في المشهد، لكن نهايته عند الله قد تأتي خاطفةً حاسمة، لأن جوهره هشّ ولو بدا غير ذلك.

غير أن الأهم من الغرق نفسه هو معناه: لقد هلك فرعون في العنصر نفسه الذي ظنّ أنه صار ملكًا لحركته. دخل البحر بعقل الغالب، فخرج منه معنى الهزيمة الكاملة. وهذه من سنن الله الباهرة: أن بعض الطغاة يُهلكون في الموضع نفسه الذي ظنوه امتدادًا لسيطرتهم.

ثلاثة عشر: لماذا لم يكفِ هذا كله لبناء بني إسرائيل فوراً؟

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى قضية محورية. عبور البحر حدثٌ عظيم، لكنّه مع ذلك لا يكفي وحده لتحويل الجماعة المضطربة إلى أمةٍ راشدةٍ مكتملة. لماذا؟ لأن النجاة من الخطر الخارجي شيء، وبناء النفس شيء آخر.

لقد رأوا البحر ينفلق، ونجوا، وغرق عدوهم، لكن سيظهر بعد ذلك أن في داخلهم رواسب كثيرة من تاريخ الاستعباد، ومن ضعف التوحيد، ومن الميل إلى الحسّ، ومن سرعة الافتتان بالصورة، وهذا مهم جداً؛ لأن القرآن لا يسمح لنا أن نفهم الخلاص فهماً ساذجاً، ليس كل من عبر البحر صار متحرراً من داخله، قد يخرج الإنسان من مصر، لكن قد تبقى مصر النفسية معه!

ولهذا كان البحر باباً عظيماً، لكنه ليس خاتمة المشروع، بل بدايته، لقد تحرروا من قبضة الطاغية، لكن بقي أن يتحرروا من القابلية القديمة للذلّ، ومن الحنين إلى المحسوس الوثنيّ، ومن ضعف الصبر على تكاليف الحرية. وهذا ما سيكشفه الفصل التالي.

الفكرة الكبرى في هذا الفصل

يمكن أن نلخص روح هذا الفصل كله في العبارة الآتية:

إن الله لا ينجي أوليائه دائماً بإبعاد البحر، بل قد ينجيهم بأن يجعل البحر نفسه طريقاً؛ ليعلمهم أن الهداية ليست رهينة الأشكال المغلقة التي تراها أعينهم.

فموسى لم يكن يملك خريطة المخرج، لكنه كان يملك ما هو أعظم من الخريطة: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

ومن امتلك هذه الحقيقة، لم يعد حبس المشهد المغلق، لأن الله من داخل
المغلقات أبواباً لا يراها أحد.

مفتاح الفصل السادس

أجمل ما يوجز هذا الفصل:

الإيمان ليس أن ترى الطريق ثم تتق، بل أن تتق برب الطريق حتى إذا غاب
الطريق ظهر.

ولهذا كانت كلمة موسى أعظم من حادثة البحر نفسها؛ لأن البحر انقلب مرة،
أما هذه الكلمة فهي زاد المؤمن في كل بحر يتكرر في حياته.

لكن العجيب أن القوم الذين رأوا البحر ينقلب، وساروا في قلب المستحيل،
ونجوا من فرعون، لم يلبثوا طويلاً حتى ظهرت هشاشتهم الداخلية، فقالوا
لموسى بعد ذلك: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}.

فكيف يحدث هذا بعد كل تلك الآيات؟

وكيف يكشف القرآن أن تحرير الإنسان من الطاغية أيسر أحياناً من تحريره
من بقايا الوثنية والخوف والعادة؟

وهل كانت أزمة بني إسرائيل بعد النجاة أعقد من أزمة فرعون نفسه من
جهة البناء التربوي؟

الفصل السابع

ما بعد البحر: لماذا لا تكفي المعجزة وحدها لبناء الإنسان؟

كيف يخرج القوم من فرعون، ويبقى في داخلهم شيء من قابلية العبودية لغير الله؟

من أكثر المواضع إدهاشًا وإيلامًا وعمقًا في قصة موسى عليه السلام أن القارئ، بعد مشهد البحر، يكاد يتوقع أن الجماعة التي رأت ما رأت قد استقرّ الإيمان في قلبها استقرارًا لا تزعزعه صورة، ولا تغلبه شهوة، ولا يفتنه مشهد. لقد رأوا البحر ينفلق.

ورأوا الطاغية يغرق، ونجوا بأعينهم من استحالة كانت منذ لحظات عنوان الهلاك المحقق، وبحسب النظر الساذج قد يظن المرء أن مثل هذه الأمة لا يمكن أن تعود سريعًا إلى ارتباكها القديم، ولا أن تضعف أمام صورة وثنية، ولا أن تسأل سؤالًا يكشف فقر توحيدها الداخلي.

لكن القرآن يوقظنا هنا على حقيقة شديدة العمق والخطورة: أن رؤية الآية لا تكفي وحدها لبناء النفس إن لم يصحبها عملٌ طويل على تفكيك البنية الداخلية التي صنعها القهر والعادة والوثنية والتاريخ.

فالخروج من البحر شيء، والخروج من بقايا مصر الكامنة في الروح شيء آخر، وإسقاط فرعون الخارجي أيسر، في بعض الأحيان، من إسقاط الفرعونية المتبقية في الوعي والعادة والذوق والافتتان بالمحسوس.

ومن هنا تبدأ المرحلة الأصعب في قصة موسى: لم تعد المواجهة مع طاغية خارجي فحسب، بل صارت مع الإنسان الذي نجا، ولكنه لم يُبْنَ بعد.

أولاً: لماذا جاءت الأزمة سريعاً بعد النجاة؟

قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}.

يا له من انتقال صادم.

{وَجَاوَزْنَا}: عبروا، ونجوا، وخرجوا من لحظة الغرق إلى لحظة الحياة.

ثم ما الذي حدث؟

لم يمضِ زمن طويل حتى مرّوا على قومٍ يعكفون على أصنام، فإذا بهم يطلبون من موسى طلباً يكشف هشاشة الداخل كلها: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}.

وهذا المشهد ليس مجرد انحراف عابر، بل هو من أعظم ما يبين لنا أن الإنسان إذا عاش طويلاً تحت حكم الطغيان، فإن أزمته لا تكون فقط في خوفه من الطاغية، بل أيضاً في ضعف معاييره الداخلية، فقد يكون قد اعتاد أن الحق ما تراه العين، وأن القوة ما تجسّد في صورة، وأن المعبود ينبغي أن يكون شيئاً محسوساً منظوراً محاطاً بالطقس والرمز والمشهد.

ولذلك فإن الجماعة الخارجة من القهر لا تخرج فوراً من أمراض الخيال الديني الفاسد، ولا من حاجتها النفسية إلى صورة تمسكها الحواس.

ومن هنا كانت الأزمة سريعة؛ لأن النجاة السريعة لا تعني البناء السريع. لقد خرجوا من البحر دفعةً، لكنهم لم يخرجوا من تاريخهم النفسي دفعةً واحدة. ولهذا يكشف القرآن أن المشكلات الكبرى في الأمم لا تبدأ دائماً بعد الهزيمة فقط، بل قد تبدأ أيضاً بعد النصر، حين يظن الناس أن الحدث العظيم الذي وقع كافٍ وحده ليصنع منهم أمةً ناضجة.

ثانياً: لماذا طلبوا إلهاً بعد أن رأوا آيات التوحيد؟

هذا السؤال ينبغي أن يُتأمل طويلاً، لأن ظاهره يثير العجب: كيف يطلب قومٌ هذا بعد البحر؟

والجواب أن رؤية المعجزة لا تستقر في النفس استقراراً كافياً ما لم تتحول إلى بنية فهم وذوق وتربية، فهم رأوا قدرة الله، نعم، لكن ذائقتهم الداخلية ما تزال مشدودةً إلى المحسوس، وإلى الرمز المادي، وإلى المعبود الذي يمكن أن يُشار إليه، ويُقام حوله الطقس، ويُرى حاضراً في المكان، إنهم لم يكونوا ينكرون الله بالضرورة من حيث الاسم، لكنهم كانوا يكشفون هنا عن عجزهم عن التوحيد المجرد الصافي الذي يربط القلب بالغيب الحق من غير وسائط حسية مبتدعة.

وهذا من أعمق أمراض النفس البشرية: أنها قد ترى الحقيقة الكبرى، ثم تعود فتفتش عن نسخةٍ منخفضةٍ منها تناسب ضعفها الحسي، لا لأنها أقوى برهاناً، بل لأنها أسهل على الخيال المربك، وأقرب إلى طبائع الناس إذا لم تُربّ نفوسهم على سموّ التوحيد، ومن هنا فقولهم: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً} ليس مجرد زلة لفظ، بل هو انكشاف أن القلب الذي لم يُهذَّب بعد قد يطلب من النبوة أن تنحدر له إلى مستوى شهوته الدينية الفاسدة.

إنهم يريدون معبودًا على طريقة ما يرون، يريدون شيئًا “مطمئنًا” للحواس، لأنهم لم يترقّوا بعدُ إلى طمأنينة القلب برَبِّ لا تُدرّكه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولهذا فإن هذه الآية تفتح لنا بابًا خطيرًا في فهم الإنسان: ليس كل انحراف عن التوحيد ناشئًا دائمًا من إنكارٍ عقليٍّ صريح، بل كثيرٌ منه ينشأ من الهبوط النفسي، من التعلق بما يمكن لمسّه ورؤيته، من ضيق الصدر بالغيب، من الرغبة في دينٍ يسهل تمثيله في صورة.

ثالثًا: جواب موسى — لماذا قال: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}؟

قال موسى: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}.

لم يقل أولًا: إنكم كفار، ولا بدأ بتفصيل عقوبة الطلب، بل شخص الداء في أصله: الجهل.

وهذا بالغ الدقة، لأن أصل المشكلة هنا ليس مجرد تمرّد على الله في لحظته الأولى، بل جهل بحقيقة الله، وجهل بحقيقة العبادة، وجهل بحقيقة ما يبطل من أمر أولئك القوم. فالجهل هنا ليس نقص معلومات فقط، بل قصورٌ في الإدراك الوجودي: لم يعرفوا بعد من هو الله على الوجه الذي يمنعهم من هذا الطلب، ولم يعرفوا معنى الإله حتى لا يطلبوا أن يُجعل لهم إله، ولم يعرفوا أن ما رأوه عند أولئك القوم هو ضلالٌ لا يُغري، بل يُرثى له.

وفي هذا ملمحٌ تربويّ عظيم: أن موسى، وهو يواجه هذه الزلة الضخمة، لا ينسى أن علاج الأمم يكون أيضًا بتسمية العلة الحقيقية. فالمشكلة ليست فقط في الطلب، بل في البنية المعرفية والروحية التي أنتجت الطلب، ومن هنا فالأنبياء لا يكتفون بتجريم السلوك، بل يردّونه إلى أصوله المفسدة في العقل

والقلب، لأن أمةً تظلّ جهولةً بحقيقة التوحيد ستنتج دائماً صوراً جديدة من الانحراف، ولو منعت عنها صورةً بعينها.

ثم قال: {إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

يا لعظمة هذا البيان، إنه لا يكتفي برفض التقليد، بل يكشف مصير المقلّد وبطلان فعله، كأن موسى يقول لهم: أنتم لا تطلبون شيئاً حسناً فاتكم، بل تطلبون شيئاً هالِكاً في نفسه، منهاراً في حقيقته، باطلاً في عمله، وهذا من جوهر التربية القرآنية: أنها لا تعلّمك فقط أن تمتنع عن الباطل، بل أن تراه باطلاً، وأن لا يقع في قلبك له طريق.

فإذا لم تتحول الوثنية في وعيك إلى شيءٍ مُتَّبَرِّ باطل، فقد تعود نفسك فتميل إليها في ساعة ضعف، حتى لو كنت تعرف حكمها الاسمي، ولهذا كان لا بد لموسى أن يعيد ترتيب الرؤية: لا تنظروا إلى الأصنام من زاوية المشهد والزينة والعكوف، بل من زاوية الحقيقة: متبرّ ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون.

رابعاً: لماذا كانت هذه الزلة أخطر من ظاهرها؟

لأنها كشفت أن بني إسرائيل ما يزالون يحملون في داخلهم استعداداً لأن ينتقلوا من عبودية إلى عبودية.

خرجوا من عبودية فرعون، لكنهم لم يصيروا بعدُ أحراراً بالقدر الذي يمنعهم من صناعة قيدٍ جديد لأنفسهم، وهذا معنى شديد الخطورة في بناء الأمم: أن المقهور إذا لم يُربَّ على التوحيد والكرامة والمعنى، فقد يكره قيده القديم، لكنّه يظلّ مشدوداً نفسياً إلى فكرة القيد ذاتها، فهو لا يحتمل الفراغ الذي تفتحه

الحرية، ولا ثقل المسؤولية التي يفرضها التوحيد، فيبحث عن شيء جديد يسلم له قلبه، أو معنى حسّي يعلّق عليه خوفه ورجاءه.

ومن هنا فالمشكلة ليست أن بني إسرائيل أحبوا “شركاً” من حيث اللفظ فقط، بل أنهم كشفوا عن حنينٍ داخليٍّ إلى أن يكون لهم شيءٌ ظاهرٌ تتعلّق به نفوسهم، بدل أن يرتفعوا إلى عبودية الله وحده بما فيها من تجريدٍ وسموّ وتحريّرٍ للوجدان.

ولهذا فإن مرحلة ما بعد إسقاط الطغيان أخطر أحياناً من مرحلة مقاومته؛ لأن النفس التي كانت متماسكة تحت ضغط العدو الخارجي قد تتكشف عيوبها بسرعة حين يزول عنها ذلك الضغط.

خامساً: التوحيد ليس مجرد إعلان، بل إعادة تشكيل الذوق

إن هذا المشهد يعلمنا أن التوحيد لا يكفي أن يُقال، بل لا بد أن يُربّى عليه الخيال والذوق والانفعال ومعيار الإعجاب.

فهؤلاء القوم لم يقولوا: نكفر بالله، لكنهم أعجبوا بصورة العكوف والرمزية الحسية، فطلبوا لأنفسهم شبيهاً بها، وهنا نفهم أن الوثنية لا تدخل الإنسان دائماً من باب التصريح العقدي، بل قد تدخل من باب الإعجاب الممهد، ومن باب الانبهار بالشكل، ومن باب اعتبار الباطل الجميل في الظاهر جديراً بأن يُقتبس منه شيء.

ولهذا فالتوحيد الحق لا يطهر فقط الاعتقاد الذهني، بل يطهر أيضاً مواطن الانبهار في النفس، يحرر الإنسان من الافتتان بالأبهة التي تحيط بالباطل، ومن الميل إلى زخارف الطقوس الفارغة، ومن التعلق بما يملأ العين ولو

أفرغ الروح، وهذا من أهم دروس موسى التربوية: أن الأمة لا تُبنى فقط بأن تعرف ما تؤمن به، بل أيضاً بأن تتربى على ألا تُعجب بما يخالفه.

سادساً: ما الذي تكشفه هذه الحادثة عن أثر الاستعباد الطويل؟

تكشف أن الاستعباد لا ينهك الجسد فقط، بل يفسد القدرة على التلقي المستقيم للحرية. فمن عاش طويلاً في ظل قوة متعالية، وتشكّل وجدانه تحت سلطان الرمز القاهر، قد يضعف عن الانتقال المباشر إلى عبودية الله الخالصة التي لا صورة فيها ولا واسطة حسية ولا مشهد مسرحي. لأنه اعتاد أن تُدار روحه خارجياً، وأن يُلقن من خلال الصورة والرغبة والتجسيد والهيمنة. فإذا خرج من تلك البيئة ولم يُعالج تربوياً، فإنه قد يطلب صورةً بديلة من الانقياد، ولو كانت باطلة.

وهذا يفسر لنا كثيراً من أزمات الأمم بعد الاستبداد، فليس سقوط المستبد نهاية المطاف، بل قد تبدأ بعده مرحلة أشد تعقيداً: كيف تبني إنساناً لا يحتاج دائماً إلى صنم جديد؟

صنم سياسي، أو اجتماعي، أو فكري، أو رمزي، أو ديني فاسد.

وهذه هي المعضلة التي واجهها موسى مع قومه: لم يكن مطلوباً أن ينقذهم من السوط فقط، بل أن ينقذهم أيضاً من الحاجة النفسية إلى من يسوقهم بطريقة الوثنية.

سابعًا: لمَ لم تمنعهم المعجزة من السقوط الفوري؟

لأن المعجزة تهزّ، لكنها لا تُغني عن التربية.

توقظ، لكنها لا تبني وحدها.

تكسر الطغيان الخارجي، لكنها لا تكسر بالضرورة كل رواسب الداخل.

إن الله شاء أن يقع هذا المشهد بعد البحر مباشرةً لئلا ننخدع نحن بفكرة أن الأحداث العظيمة وحدها تصنع النفوس العظيمة، كلا. قد يرى الإنسان من آيات الله ما يهزه هزًّا، ثم لا يلبث إن لم يتَّربَّ أن يعود إلى ضعف قديم، لأن الحدث لا يغني عن البناء، والانفعال لا يغني عن التزكية، والنجاة لا تغني عن التكوين.

وهذه قاعدة شديدة الأهمية في كل مشروع إصلاحى: لا تظن أن لحظة انتصار واحدة، أو سقوط خصم كبير، أو عبور أزمة هائلة، ستصنع تلقائيًا إنسانًا ناضجًا، كلا، إن النفوس قد تخرج من المعارك بأجسادٍ ناجية، لكنها تحتاج بعد ذلك إلى سنواتٍ من إعادة الصياغة حتى تصير أهلًا لمعنى ما نالت.

ثامنًا: لماذا كانت إجابة موسى حاسمةً لا مساومةً فيها؟

لأن هذا الموضع ليس من المواطن التي تُدار بالمجاملات التربوية الرخوة. إن السؤال هنا يمسّ مركز الدين كله. ومن هنا كان لا بد من ردٍّ حاسمٍ يكسر الوهم من جذره. فالأنبياء رحماء بالخلق، نعم، لكنهم في مسائل التوحيد لا

يتركون للضباب مجالاً. لأن أي رخاوة هنا ستسمح للباطل أن يتخذ لنفسه موطئ قدم في النفس، ثم يتمدد بعد ذلك.

ولذلك لم يقل موسى: دعونا نؤجل الأمر، أو سنبحث هذا لاحقاً، أو لعلمكم تقصدون شيئاً آخر، بل سمى الجهل جهلاً، وسمى الباطل باطلاً، وسمى ما هم فيه مُتَبَرِّراً، لأن رحمة المربي ليست في تمييع الحقيقة، بل في حسمها حين يكون الحسم هو عين النجاة.

تاسعاً: كيف يربط هذا المشهد بين فرعون والعجل؟

هذا المشهد في الحقيقة هو المقدمة النفسية لما سيأتي لاحقاً في قصة العجل. فطلبهم هنا: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} يكشف أن في الداخل قابلية لم تُعالج بعد، وأن العبور من البحر لم يمخُ من وجدانهم الحاجة إلى شيءٍ مرئيٍّ تلقى فيه المعاني الكبرى.

ولذلك لم يكن العجل لاحقاً حادثَةً منفصلةً تماماً من فراغ، بل كان امتداداً لانكشافٍ مبكر حدث هنا، فمن لم يُشفَ من الميل إلى الوثنية الحسية، قد يبحث عنها غداً في صورة أخرى إذا توفرت له الشروط.

ومن هنا فالمربي البصير لا يقرأ الزلات الكبرى منفصلة عن مقدماتها الدقيقة، وقد كشف القرآن لنا هذه المقدمة بوضوح، حتى نفهم أن الانحراف الكبير لا يولد عادةً دفعةً واحدة، بل تسبقه قابليات صغرى، وإعجابات، وطلبات، ونزعات لم تُعالج كما ينبغي.

عاشراً: المعنى الوجودي الأعرق — الإنسان لا يحتمل الفراغ إلا بالله

وهذا من أعرق ما يستفاد من هذا الفصل.

حين يُنزع من الإنسان طاغيته أو صنمه أو قيده القديم، ينشأ فراغ في الداخل.

وهذا الفراغ لا يحتمل كثيرون ثقّله.

فإن لم يُملأ بالله، مُلئ بغير الله.

وبنو إسرائيل خرجوا من قهرٍ عظيم، لكن قلوبهم لم تكن بعدُ ممتلئة بالله على الوجه الذي يجعلها تستغني عن طلب الصور البديلة.

ولهذا طلبوا إلهًا كما لهم آلهة. إنهم في العمق يقولون: نريد شيئاً نملأ به هذا الفراغ الجديد على نحوٍ نعرفه ونألفه، ومن هنا فإن التوحيد ليس مجرد تحطيم أصنامٍ خارجية، بل هو ملء الداخل بالله حتى لا يعود محتاجاً إلى صناعة صنم جديد.

وهذا هو سرّ مركزية الذكر والعبادة والعهد والوحي في بناء الأمم. ليست هذه أموراً جانبية بعد النصر، بل هي الضرورة القصوى، لأن الأمة إذا لم يُملأ فراغها بالله امتلأ تلقائياً بأي شيء آخر يملك جاذبية الصورة أو ضغط العادة أو راحة المحسوس.

الفكرة الكبرى في هذا الفصل

يمكن أن نختصر هذا الفصل في العبارة الآتية:

إن الخروج من البحر لا يكفي إذا لم يخرج البحر القديم من داخل النفس؛ فالأمم قد تنجو من الطاغية، ثم تسقط سريعاً إذا لم تُربَّ على التوحيد الذي يحرر الذوق والخيال والوجدان، لا الشعار فقط.

ولهذا كانت أزمة بني إسرائيل بعد النجاة ليست هامشاً في القصة، بل هي قلب آخر من قلوبها؛ لأنها تكشف أن معركة موسى الحقيقية لم تكن مع فرعون وحده، بل أيضاً مع قابلية قومه لأن يطلبوا لأنفسهم نسخة أخرى من العبودية.

مفتاح الفصل السابع

أوجز هذا الفصل في هذه الجملة:

المعجزة قد تُخرجك من الهلاك، لكنها لا تبنيك وحدها؛ والذي يبنيك حقاً هو التوحيد حين يعيد تشكيل باطنك حتى لا تفتن بعد النجاة بما كنت ستسقط به قبلها.

لكن ما ظهر هنا بوصفه طلباً عابراً: {اجْعَلْ لَنَا إِلْهًا}، سيعود لاحقاً في صورة أخطر وأفجع وأشدّ كشفاً لما بقي في الداخل، حين يغيب موسى عن قومه أياماً، فيصوغ السامريّ لهم عجلاً جسداً له خوار، ثم تقع الفتنة الكبرى.

وهنا يدخل الكتاب إلى أحد أخطر فصوله:

كيف تُصنع الوثنية بعد المعجزة؟

ولماذا لا يسقط في فتنة العجل فقط من يجهل، بل أيضاً من لم يُطهَّر بعدُ
من شهوة المحسوس؟

ومن هو السامريّ في البناء القرآني: شخصٌ فقط، أم نموذجٌ دائم لصانع
الفتنة من بقايا الضعف الجماعي؟

الفصل الثامن

العجلُ بعدَ البحر: كيف تُصنعُ الوثنيَّةُ من بقايا الفراغِ الداخلي؟

ولماذا كانت فتنةُ السَّامريِّ أخطرَ من كونها انحرافاً عابراً؟

إذا كان مشهدُ قولهم لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} قد كشف عن قابليةِ دفينةٍ للهبوطِ إلى المحسوسِ الوثني، فإن مشهدَ العجلِ يأتي ليقول لنا إن القابليةَ إذا لم تُعالَج، فإنها لا تبقى مجردَ ميلٍ نفسيٍّ عابرٍ، بل قد تتحول، في لحظةِ فراغٍ واضطرابٍ، إلى بناءٍ كاملٍ للفتنة؛ إلى رمزٍ، وصوتٍ، وجمهورٍ، ومسوّغٍ، وانقسامٍ، وتأويلٍ، ثم إلى أزمةٍ تهزُّ الجماعةَ كلها من داخلها.

وهنا يبلغ القرآن في قصة موسى عليه السلام درجةً مدهشةً من كشف طبائعِ الإنسان والجماعة؛ لأن القوم الذين رأوا البحر ينقلب، والذين هلك عدوهم أمام أعينهم، والذين سمعوا النداء بالتوحيد، لم تمنعهم كل تلك الآيات من أن يقعوا بعد حينٍ قصيرٍ في واحدةٍ من أفجع صور السقوط: أن يُصاغ لهم عجلٌ جسدٌ له خوار، ثم يُقال لهم في ذروة التزييف: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}.
يا لنقل هذه الجملة.

إنها لا تمثل مجرد شركٍ فجٍّ، بل تمثل انحداراً مركباً: اختزال الإله في جسدٍ مصنوعٍ، وتحويل الرمز إلى معبودٍ، واستثمار الفراغ الذي خلفه غياب القائد، ثم إضافة طبقة من الوقاحة التأويلية، كأن القضية ليست كفرًا ظاهرًا، بل “تصحيحًا” أو “استدراكًا” أو “كشفًا لما غاب عن موسى”. وهنا نكتشف أن

أخطر الفتن ليست دائماً تلك التي تأتي معلنةً نفسها على أنها باطل صرف، بل تلك التي تتزيّن بشيءٍ من خطاب التأويل، وتلبس مسوح القرب من الحقيقة، ثم تقود الناس إلى نقيضها.

أولاً: لماذا وقعت الفتنة في غياب موسى؟

قال تعالى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}

ثم قال سبحانه: {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}.

وهنا ينبغي أن نتوقف طويلاً؛ لأن القرآن يربط الفتنة بحدثين متزامنين:

غياب موسى، وحضور السامري.

أي إن الفتنة لم تولد من عدم، بل احتاجت إلى فراغٍ في القيادة وفاعلٍ قادرٍ على استثمار هذا الفراغ، وهذا من سنن الاجتماع البشري: أن الجماعات التي لم يكتمل بناؤها الإيماني الداخلي تكون أكثر عرضةً للاهتزاز حين يغيب عنها من يشدها، لا لأن الحق غاب بذاته، بل لأن علاقتها به لم تترسخ بعد في العمق الذي يجعلها ثابتة وإن غاب بعض المبلّغين عنه.

وموسى عليه السلام لم يغيب غياباً انفصالياً، بل غاب في طاعة الله، وفي مقام القرب والميقات وتلقّي الألواح، ومع ذلك وقع ما وقع، وهذا يعلمنا أن مجرد وجود القيادة الصالحة لا يكفي، ما لم يتحول أثرها إلى مناعةٍ داخلية في الجماعة، فالقائد المربي لا يكفي أن يكون حاضراً في الأوقات العادية، بل لا

بد أن يكون قد بنى في الناس من المعاني ما يجعلهم أقدر على الثبات في أوقات الغياب والالتباس.

ومن هنا كانت الفتنة هنا محكًا حقيقيًا: هل صار التوحيد في القوم وعيًا مستقلاً في بواطنهم، أم ما يزال معتمداً اعتماداً هشاً على وجود موسى بينهم؟ وقد كشف الحدث أن كثيراً من البناء لم يكن قد استوى بعد.

ثانياً: السامريّ — شخصٌ أم وظيفةٌ دائمة في تاريخ الفتن؟

قال سبحانه: {وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}.

في ظاهر القصة، السامريّ رجل معلوم من القوم، له فعله الخاص، وسيتحدث عن نفسه لاحقاً بقوله: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ}.

لكن التأمل في البناء القرآني يجعلك ترى أن السامريّ ليس مجرد اسم لشخص انقضى، بل هو أيضاً نموذجٌ متكرر في كل جماعة: شخصٌ يلتقط هشاشة الناس، ويعرف موضع الفراغ في نفوسهم، ويملك قدرةً على تحويل القابلية الكامنة إلى فتنةٍ مكتملة الصورة.

فالسامريّ لا يصنع شيئاً من العدم، إنه لا يخلق فيهم الشهوة إلى المحسوس من أصلها، بل يستثمر ما هو موجود، لا يزرع من الصفر الحاجة إلى الرمز المادي، بل يلتقط الحاجة ويعطيها شكلاً، لا يخترع الفراغ الداخلي، بل يبني فوقه، ولهذا كان خطره هائلاً: لأنه لم يأتِ بمعنىً غريباً تماماً عن نفوسهم، بل جاءهم بما يناسب ضعفهم المؤجل.

ومن هنا فـ”السامري“ في تاريخ الأمم ليس فقط من يصنع صنماً من ذهب، بل كل من يحسن قراءة النقص الروحي في الجماعة، ثم يقدم له صورةً جذابةً، أو خطاباً موهماً، أو مشروعاً يحوّل شهوة الناس وضعفهم إلى باطلٍ منظم. إنه صانع الفتنة الذي يعرف أن الناس لا يُفتنون غالباً بما يكرهون، بل بما يشتهي جزءٌ ضعيفٌ فيهم أن يراه.

ثالثاً: لماذا العجل؟

قال تعالى: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ}.

والسؤال هنا بالغ الأهمية: لماذا كان المخرج عجلًا؟

ليس لأن العجل مجرد شكلٍ عشوائي، بل لأنه يجمع أموراً عدة:

هو جسد؛ أي شيء محسوس، مرئي، قائم أمام العين.

وله خوار؛ أي صوت يوهم بالحياة والحضور والتفاعل.

وهو مصنوع من حليٍّ جمعت من القوم؛ أي إن الفتنة صيغت أيضاً من مادةٍ خرجت من الناس أنفسهم.

وهذه العناصر الثلاثة تكشف تركيب الوثنية على نحوٍ مذهل:

محسوسٌ يُرى، وصوتٌ يُسمع، ومادةٌ من البيئة ذاتها، ثم تأويلٌ يمنحه مقام الألوهية.

إن الإنسان الضعيف إيمانياً ينجذب إلى ما يملأ حسّه، يريد شيئاً يراه، ويسمعه، ويشعر أنه حاضر أمامه، ولهذا كانت الوثنية دائماً تعبيراً عن

هبوط في الوعي من سمو الغيب إلى راحة الحسّ. فالإله الحق لا يحتاج أن يكون مجسّدًا حتى يكون موجودًا، ولا أن يصدر صوتًا ماديًا حتى يطمئن له القلب، لأن الإيمان الحق يقوم على معرفة أعلى من الإدراك الحسيّ. أما النفس التي لم تُربّ بعد على هذا السمو، فإنها تميل إلى ما يقف أمامها ويشغل حواسها.

ومن هنا كان العجل مناسبًا تمامًا لضعف القوم: إنه يقدم لهم “حضورًا” بديلًا عن الغيب الذي لم يرتفعوا إليه بعد، وكأنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا على إله لا يُرى وتُعرف آياته، فاستراحوا إلى شيء يُرى ولو كان في غاية التفاهة من حيث الحقيقة.

رابعًا: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَانْسِيْ} — وقاحة التأويل حين يخدم الباطل

هذه الجملة من أخطر ما في الفصل كله.

فالفتنة لا تكتفي بصناعة صنم، بل تضيف إليه تأويلًا مخادعًا، لم يقل السامري: هذا بديل عن الله صراحةً فحسب، بل قال: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى}، ثم زاد الطعنة: {فَنَسِيْ}.

كأن موسى، في زعمهم، لم يعرف الطريق إلى الإله كما عرفوه هم، أو كأن غيبته عنهم كانت غفلة عن “الحقيقة” التي أدركها السامري.

وهذا من طبيعة الفتن العظمى: أنها لا تُعرض نفسها دائمًا بصفاتها انقلبًا على الحق، بل بصفاتها كشفًا أعمق للحق، أو تصحيحًا لمسار سابق، أو بديلًا “أوضح” و”أيسر” و”أكثر حضورًا” مما جاءت به الرسالة.

وهكذا يتحول الباطل من تمرّد ظاهر إلى خطابٍ منافس، يزعم أنه لا ينقض الأصل، بل يكمله أو يشرّحه أو يقربّه. وهذه هي الداهية؛ لأن الجماهير الساذجة قد تنفر من الكفر المعلن، لكنها قد تُستدرج إلى الفتنة إذا قدّمت لها في صورة “توضيح” أو “تمثيل” أو “تقريب” أو “رمز” لما لا تستطيع إدراكه. ومن هنا فالجملة ليست فقط جريمةً عقديّة، بل نموذجٌ خالد لآلية التزييف:

الانحراف،

ثم تجميل الانحراف،

ثم اتهام الحق السابق بالنقص أو النسيان.

خامساً: أين كان هارون؟ ولماذا لم يمنعهم؟

قال تعالى على لسان هارون: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي}.

فقالوا له: {لَنْ نُبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}.

هذا الموضع شديد الأهمية؛ لأنه يرفع توهمًا قد يقع في النفس: لم يكن القوم بلا نذير، ولم يتركهم هارون ليلعب بهم السامري كما شاء، بل قام بالواجب: شخص الفتنة بأنها فتنة، وردّهم إلى ربهم، ودعاهم إلى اتباعه، وأمرهم بالطاعة، لكنهم أبوا، وهذا يكشف أن المشكلة لم تكن فقط في غياب الخطاب الصحيح، بل في شدة سلطان الشهوة الوثنية على نفوسهم في تلك اللحظة.

وقولهم: {حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} يحمل مفارقةً موجهة، فهم لا ينكرون مكانة موسى بالكامل، لكنهم في الوقت نفسه يعكفون على العجل حتى يرجع. أي إنهم يعيشون انفصامًا هائلًا: يعرفون أن موسى مرجعهم، لكنهم لم يمنعهم ذلك من أن يفتتنوا بما يناقض رسالته، وهذا من طبيعة الضعف البشري إذا لم يتهذّب: قد يحتفظ المرء ببعض الاعتراف الشكلي بالحق، ثم يرتكب ما يهدمه عمليًا، كأنه يؤجل الحسم حتى يعود من يذكّره، بينما ينغمس في الفتنة الآن.

سادسًا: لماذا قال هارون: {إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ}؟

لأن المشكلة ليست في العجل من حيث مادته، بل في الأثر الذي أحدثه في نفوسهم.

الفتنة هنا ليست مجرد وجود الشيء، بل وقوع القلب في اختباره، وهذا دقيق جدًا؛ لأن كثيرًا من الناس يخطئون فيظنون أن الخطر في الرموز نفسها فقط، بينما القرآن يلفتنا إلى أن الخطر الحقيقي في قابلية النفس لأن تُفتن بها، فالعجل في ذاته مصنوعٌ عاجز، لكنّه صار فتنة لأن النفوس قبلت أن تنظر إليه لا بصفته جسدًا أجوف، بل بصفته موضع معنى أعلى.

ومن هنا فإن هارون يردّ القضية إلى أصلها التربوي: أنتم ممتحنون به. أي إن السؤال ليس: هل لهذا العجل قوة في ذاته؟ بل السؤال: ماذا كشف وجوده من ضعف فيكم؟ وما الذي جعلكم تتحدرون من معرفة ربكم الرحمن إلى العكوف على جسد له خوار؟ إن الفتنة لا تكون عظيمة لأن موضوعها عظيم، بل لأن ضعف النفس أمامها عظيم.

سابعًا: {وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ} — لماذا اختار اسم الرحمن؟

هذا الاختيار بالغ اللطف والعمق.

هارون لم يقل فقط: وإن ربكم الله، بل قال: {الرَّحْمَنُ}.

وكان القوم، في لحظة الفراغ والاضطراب، كانوا يبحثون عن حضورٍ يمسكهم حسيًا، فأعادهم هارون إلى المعنى الذي كان ينبغي أن يملأ هذا الفراغ: ربكم الرحمن، لا هذا الجسد الصائت، أي إن الذي تحتاجونه في خوفكم وتيهكم وارتباككم ليس صنمًا محسوسًا، بل رحمة الله.

فاسم الرحمن هنا يجيب عن الجوع النفسي الذي حاولت الوثنية أن تستثمره. إنكم لستم محتاجين إلى عجلٍ يملأ أعينكم، بل إلى رحمنٍ يملأ قلوبكم.

وهذا من أعظم وجوه الفقه التربوي في الخطاب النبوي: أنه لا يكتفي بنقض الباطل، بل يردّ الناس إلى الاسم الإلهي الذي يداوي موضع ضعفهم. فالوثنية هنا لم تكن طلب قوة مجردة، بل طلب حضورٍ وطمأنينة وضبطٍ للتيه. فجاءهم الجواب: ربكم الرحمن. أي إن الذي تبحثون عنه على وجهٍ محرّف موجودٌ في أتم صورة عند الله، ولكنكم تهبطون عنه إلى ما لا يملك لكم شيئًا.

ثامنًا: غضب موسى — لماذا كان بهذه الشدة؟

قال تعالى: {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا}.

هذا الغضب ليس غضبًا شخصيًا، ولا انفجارًا نفسيًا مجردًا، بل هو غيرة التوحيد حين يُنتهك في الأمة بعد كل ما أُعطيت من آيات.

لقد واجه موسى فرعون، وصبر، وأوتي من الآيات ما أُوتي، وعبر بقومه البحر، ثم يعود ليجدهم قد انتكسوا إلى عجلٍ من صنع أيديهم. هنا لا يكون الغضب ضعفًا، بل يكون في موضعه من تمام الإيمان. لأن هناك مواطن يكون التهاون فيها خيانة للحق، ويكون الألم العنيف فيها شهادةً على أن التوحيد حيّ في القلب لا يقبل أن يُمسح.

ثم قال: {يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي}.

هذه الآية تكشف أن موسى يردّ الفتنة إلى عناصرها الداخلية:

نسيان الوعد، وضيق النفس بطول الانتظار، وقلة احتمال الغياب، ثم إخلاف الموعد.

وكان الفتنة لم تقع فقط لأن السامريّ ماهر، بل لأن القوم لم يصبروا على المسافة بين الوعد وتحقيقه. وهذه قضية عظيمة في بناء الإيمان: كثيرٌ من الناس لا يسقطون لأن الحق غير واضح، بل لأنهم يضيقون بزمن الانتظار، ويريدون حضورًا فوريًا، وعلامةً حسيةً عاجلة، وطمأنينةً ملموسة، فإذا تأخر عليهم بعض ما وعدوا به أو غاب عنهم القائد برهةً، استدرجهم الشيطان إلى البدائل السهلة.

تاسعًا: العجل بوصفه اختبارًا لعلاقة الأمة بالغياب

ومن أعمق ما يظهر هنا أن فتنة العجل ليست فقط فتنة صورة، بل فتنة الغياب.

غاب موسى عنهم أيامًا.

وغاب الحسن المباشر الذي كانوا يألّفونه.

فماذا يفعل الإنسان إذا غاب عنه من يشدّه، وتأخر عليه ما ينتظره؟

هنا ينكشف هل امتلأ قلبه بالله أم لا.

ولهذا فإن فتنة العجل درسٌ كونيّ يتجاوز القصة التاريخية: إن كثيرًا من الناس يثبتون ما دام الحق حاضرًا أمامهم في صورة قائد، أو جوّ إيماني، أو ظرفٍ ضاغط، فإذا غاب بعض ذلك انكشفت حقيقة ما في داخلهم.

ومن هنا كانت التربية الحقيقية لا تكتفي بأن تجعل الناس صالحين في لحظة الحضور، بل تجعلهم أقدر على الثبات في زمن الغياب، لأن الإيمان الذي لا يصمد إلا تحت العين المباشرة إيمانٌ لم يكتمل بعد.

عاشرًا: ما الذي تكشفه الفتنة عن المادة التي صُنِعَ منها العجل؟

في مواضع القصة إشارة إلى أنهم جمعوا حُلِيًّا، ثم صيغ منها العجل. وهذا يفتح بابًا بديعًا في التأمل: أن الفتنة كثيرًا ما تُصنع من أشياء في أصلها مباحة أو ثمينة أو مرغوبة، ثم تُعاد صياغتها في قالبٍ فاسد. فالخطر ليس دائمًا في

المادة من حيث ذاتها، بل في الصورة التي تُركَّب بها، والمعنى الذي تُساق إليه.

وهذا يجعلنا نفهم أن الأمم قد تحمل في داخلها موادَّ البناء وموادَّ الفتنة في الوقت نفسه. نفس القدرات، ونفس الأموال، ونفس المواهب، ونفس الرغبات، يمكن أن تتحول إلى معارج عبودية لله، أو تتحول إلى عجول جديدة إذا دخل عليها سامريّ الفتنة وأعاد تشكيلها وفق ضعف النفوس. ومن هنا فالحراسة الحقيقية ليست حراسة الأشياء فقط، بل حراسة المعنى الذي تُوظَّف له.

أحد عشر: لماذا كانت هذه الفتنة ضرورية في منطق التربية القرآنية؟

ليس لأنها خير من حيث وقوعها، حاشا، ولكن لأن القرآن يريد أن يكشف أن الأمة لا تُترك لتتوهم أنها صارت راسخة بمجرد عبور البحر، كان لا بد أن يظهر ما بقي في الداخل، حتى يبدأ العلاج الحقيقي. فالأمراض التي لا تنكشف لا تُعالج، والضعف الذي يظل مختبئاً قد يصير غداً أشد هلاكاً، ومن هنا كان ظهور فتنة العجل، على فظاعته، كشفاً ضرورياً عن الحقيقة الباطنة للجماعة: ما تزال فيهم رواسب ضخمة من الافتتان بالمحسوس، وضعف الصبر، والحاجة إلى الرمز المادي، وقابلية التأثر بصانع الفتنة.

وهذا مهم جداً في منطق الإصلاح: أحياناً يكون انكشاف المرض المؤلم أول الطريق إلى الشفاء، لأن الجماعة قبل ذلك كانت قد تخدع نفسها بما رأت من آيات وانتصارات، فتظن أنها بلغت ما لم تبلغه، فجاءت الفتنة لتقول: لا، ما زال الطريق طويلاً، وما زال التوحيد محتاجاً إلى حفرٍ أعمق في القلوب.

اثنا عشر: المعنى الأكبر — الوثنية لا تبدأ بصنم، بل بفراغٍ لم يملأه الله

إذا أردنا أن نبلغ قلب هذا الفصل، فهذه هي الجملة المفتاحية:

إن الوثنية لا تبدأ عادةً من الخارج، بل تبدأ من فراغٍ في الداخل لم يملأه الله كما ينبغي.

فإذا فرغ القلب من اليقين العميق، ومن الذكر، ومن القدرة على احتمال الغيب، ومن الصبر على الوعد، ومن الشبع بالله، بدأ يبحث عن بدائل:

عن صورة، عن صوت، عن رمز، عن شيءٍ يملأ العين ولو أفرغ الروح.

وهكذا كان العجل. لم يكن قوة في ذاته، بل كان جوابًا مزيّفًا عن جوعٍ حقيقيٍّ لم يُعالج كما يجب. ولهذا فإن محاربة الوثنية لا تكون فقط بتحطيم صورها بعد وقوعها، بل قبل ذلك بملء الداخل بالله حتى لا يبقى محتاجًا إليها.

مفتاح الفصل الثامن

يمكن تكثيف هذا الفصل في العبارة الآتية:

العجل ليس مجرد صنمٍ من ذهب، بل هو الاسم الذي يأخذه الفراغُ الروحي حين يجد من يصوغه في صورةٍ تُرضي ضعف النفوس.

ولهذا كانت فتنة السامريّ أخطر من مجرد انحرافٍ عابر؛ لأنها كشفت أن الأمة التي لا يُملأ قلبها بالله قد تصنع، من المادة التي في أيديها، صنمها الجديد.

لكن فتنة العجل لا تقف عند حدود انكشاف القوم، بل تمتدّ إلى مشهدٍ بالغ الحساسية في القصة:

الألواح، وغضب موسى، وأخذه برأس أخيه يجرّه إليه، ثم تبين الحقيقة، ثم مواجهة السامريّ نفسه.

وهنا نصل إلى فصلٍ دقيقٍ جدًا:

كيف يغضب النبيّ للحق دون أن ينفصل عن الرحمة؟

وما الفرق بين الغيرة على التوحيد والانفعال الأعمى؟

وكيف يواجه موسى صانع الفتنة لا جمهور المفتونين فقط؟

الفصل التاسع

الألواح والغضب والغيرة على التوحيد: كيف يشتعل قلب النبي للحق من غير أن يفقد ميزانه؟

بين الفتنة والجراح الداخلية: موسى يواجه قومه، ويواجه أخاه، ويواجه صانع الفتنة

إذا كانت فتنة العجل قد كشفت أن في الجماعة ضعفًا لم يُستأصل بعد، فإن ما يأتي بعدها يكشف أمرًا آخر لا يقل عمقًا: كيف يتصرف حامل الرسالة حين يعود فيجد ما بناه قد نُقض من الداخل؟

كيف يغضب؟

كيف يزن؟

كيف يفرق بين من أضلّ، ومن ضلّ، ومن حاول المنع فلم يُطع، ومن كان موضع الفتنة أصلًا؟

وكيف تبقى الغيرة على التوحيد مشتعلة بأقصى درجاتها، من غير أن تتحول إلى عمى يطمس الفروق الدقيقة بين مواقع المسؤولية؟

وهنا تبلغ قصة موسى عليه السلام مستوى بالغ الإنسانية والرفعة؛ لأن القرآن لا يرسم لنا نبيًا جامدًا لا تهزه الفجائع، ولا يقدم لنا قائدًا باردًا يتعامل مع انهيار المعنى وكأنه حادثة إدارية.

بل يقدم لنا قلباً نبياً يغضب، ويأسف، ويتألم، ويشتد، ثم يعود فيفرز، ويفهم، ويضع كل شيء في موضعه، وهذا من أعظم ما في القرآن: أنه لا يلغي حرارة الحق في النفس، ولا يسمح في الوقت نفسه أن تنفلت هذه الحرارة من ميزان الحكمة.

أولاً: رجوع موسى بالألواح لا بالعاطفة المجردة

قال تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا}.

هذا التعبير وحده يكفي لفتح أبواب من التأمل.

غضبان: اشتعل قلبه للحق، ولم يمرّ على ما حدث مرور المتغافل.

أسفاً: والأسف هنا ليس مجرد حزن، بل حزنٌ ممزوجةٌ بالألم والغیظ واللوعة على ما آل إليه الأمر.

فهو ليس غضباً بارداً، ولا حزناً مستسلماً، بل اجتماع حرارة الغيرة مع وجع القلب.

وهذا مهم جداً؛ لأن بعض الناس يظنون أن المثالية الإيمانية تعني برودة الانفعال، وكأن اكتمال الإيمان أن يرى الإنسان انهيار التوحيد في أمته ثم يتصرف بنبرة مطفأة لا جرح فيها.

لكن موسى يعلمنا أن هذا ليس هو الكمال، بل الكمال أن يغضب قلبك للحق، وأن يتألم وجدانك للانحراف، لأن برودة الروح أمام انتهاك التوحيد ليست دائماً حكمة، بل قد تكون علامة ضعف الحياة في القلب.

غير أن العظمة ليست في الغضب وحده، بل في أن موسى لم يرجع فارغاً، بل رجع من مقام الميقات ومعه الألواح.

وكان القرآن يريد أن يقول: إن الغيرة حين تكون ربانية لا ترجع إلى الميدان بصوت الجرح وحده، بل ترجع أيضاً بالوحي، وبالمعيار، وبالكلمة المكتوبة من الله، فالحق لا يُستعاد بالانفعال وحده، مهما صدق، بل يحتاج إلى ميزان يُرد إليه الناس، وإلى شريعة تُبنى عليها الأمة من جديد بعد الفتنة.

ثانياً: أول خطاب لموسى — لماذا بدأ بالتذكير بالوعد والميقات؟

قال: {يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي}.

هذا الخطاب بديع في بنائه؛ لأن موسى لا يبدأ بتفصيل صورة العجل أولاً، بل يبدأ بخرق العهد، وكان جوهر الأزمة عنده ليس في الرمز المصنوع فحسب، بل في أن القوم نقضوا العلاقة التي كانت ينبغي أن تربطهم بالله وبنبيهم وبالوعد الذي بين أيديهم، لقد كان هناك وعد حسن، وكان هناك موعد معلوم، وكان هناك معنى ينبغي أن يصبروا عليه، لكنهم ضاقوا به، فاستعجلوا لأنفسهم وثناً.

وفي هذا درسٌ بالغ العمق: كثيرٌ من الفتن لا تنشأ أولاً من شبهة عقلية مجردة، بل من ضيق النفس بالعهد، ومن عدم احتمال المسافة بين النداء وتحقيق مقتضاه.

الناس يفسدون أحياناً لا لأن الحقيقة غامضة، بل لأنهم لا يطبقون زمن التزكية، ولا زمن الانتظار، ولا زمن الغياب، فيطلبون حلاً عاجلاً تختصر

لهم الطريق ولو كانت باطلة، ولذلك ردّ موسى الأمر إلى سؤالين يهزان الضمير:

هل طال عليكم العهد حتى نسيتم؟

أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم؟

أي إن فتنة العجل ليست فقط خطأً فكريًا، بل هي في جذورها خيانة صبر، وخيانة عهد، وخضوع لاستعجالٍ روحي لا يحتمل التدرج الرباني في البناء.

ثالثًا: لماذا ألقى الألواح؟

قال تعالى: {وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ}.

هذا الموضع من أكثر المواضع حساسيةً في القصة، ويحتاج إلى أدبٍ في الفهم.

فموسى لم يُلْقِ الألواح استخفافًا بكلام الله، حاشاه، ولا اعتراضًا على الوحي، بل ألقاها في لحظةٍ من شدة الغضب والأسف على قومه.

والمفسرون يذكرون في هذا وجوهًا، لكن الذي يعنينا هنا في البناء التأملّي أن هذا الفعل يكشف حجم الصدمة النبوية: لقد جاءهم بالميثاق والكتاب والهدى، فاستقبلوا ذلك بانحدارٍ إلى عجل.

وكأن المشهد يقول: ما أشدّ الفاجعة حين تحمل إلى الناس كلام الله، ثم تجدهم قد انشغلوا بجسدٍ له خوار، ليس هذا فعل برودٍ أو ترتيبٍ إداري، بل فعل قلبٍ نبويٍّ اصطدم في لحظة واحدة بين عظمة ما جاء به، وضآلة ما انحدر إليه

قومه. وهنا يظهر أن الأنبياء ليسوا آلات تنفيذه، بل أرواحاً حيّة تتوجع حين ترى الهوة بين فيض السماء وهبوط الأرض.

ومع ذلك فإن القرآن لم يتركنا في لحظة الغضب وحدها، بل سيعيد بعد قليل ترتيب المشهد، ويبين أن حرارة الغيرة لا تمنع بعد انقضاء فورانها من العودة إلى الضبط والتميز.

رابعاً: أخذه برأس أخيه — هل أخطأ موسى في الحكم؟

قال تعالى: {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}.

هذا من أكثر المواضع إنسانية في القصة.

إن موسى عاد فوجد الكارثة، وكان هارون هو الخليفة على القوم في غيبته، فاندفع في أول صدمة إلى أخيه، وهذا مفهوم من جهة حرارة الموقف؛ لأن العين في اللحظة الأولى تبحث عن أقرب موضع مسؤولية ظاهر، لكن القرآن، في دقته العجيبة، لا يترك هذا الفعل معلّقاً، بل يتيح لهارون أن يتكلم، ويبين لموسى الحقيقة، فيكشف لنا أن الغيرة الصادقة قد يسبق فيها الألم تمام الاستيضاح، ثم تعود فتصح نفسها.

وهذا من الجمال الأخلاقي في القرآن: أنه لا يصور الصالحين في صورة ملساء تخلو من كل حركة بشرية، بل يصورهم في صدقهم الكامل، ثم يبين كيف يعالجون ما يقع في لحظة الشدة، فموسى هنا لا يُذمّ لأن قلبه اشتعل، ولا يُترك فعله بلا بيان، بل يمضي المشهد ليعلمنا أن الغضب للحق مشروع، لكن تمام الكمال أن يُفتح بعده باب الفهم والتصويب.

خامساً: جواب هارون — ما الذي يكشفه عن فقه القيادة في زمن الفتنة؟

قال هارون: {يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي} إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}.

هذا الجواب من أنفس ما في القصة من جهة فهم القيادة.

أولاً: قوله {يَا ابْنَ أُمِّ} ليس مجرد نداء نسبي، بل نداء استرحامٍ وتذكيرٍ برابطة الرحم في لحظة اشتداد التوتر، كأنه يوقظ في موسى الجانب الذي يهدأ به فوران الغضب، ويعيده من دائرة الاشتعال إلى دائرة التذكر والرحمة والإنصاف.

ثم إن هارون لا يبدأ بالدفاع عن كرامته، بل يشرح اجتهاده القيادي:

لقد نهاهم.

لقد قال لهم: إنما فتنتم به.

لقد دعاهم إلى اتباعه.

لكنهم أصروا.

وكان أمامه خياران: أن يشتدّ عليهم فينشأ اقتتالٌ أو انقسامٌ داخليٌّ أكبر، أو أن يبقى رابطاً ما بقي من الجماعة حتى يرجع موسى.

وهنا نلمس حكمةً عظيمة: أن مواجهة الفتنة لا تكون دائمًا بأقصى صورةٍ من الحسم الظاهر في كل لحظة، بل قد تضطر القيادة أحيانًا إلى الموازنة بين مفسدات متعددة.

هارون خشي أن يذهب في المواجهة إلى حدٍّ يؤدي إلى تفتت الجماعة نهائيًا قبل رجوع موسى، فاختر أن يحفظ الحد الأدنى من التماسك، وأن يبقى النداء قائمًا، وأن ينتظر حضور الأصلح للحسم الأكبر.

وهذا لا يعني أن موقفه كان أيسر من موقف موسى، بل يعني أن لكل واحدٍ منهما موقعه في اللحظة:

موسى رجع فرأى المشهد بعد اكتماله، فاشتعل قلبه لحسم الانحراف.

وهارون كان في قلب الفتنة وهي تتكوّن، فرأى من داخلها أن خطوةً معينة قد تقضي إلى شرٍّ أشد.

وهكذا تعلّمنا القرآن أن الأحكام على المواقف القيادية لا تفهم خارج سياقاتها وضغوطها ومراتب المفسدات والمصالح فيها.

سادسًا: ماذا فعل موسى بعد أن سمع هارون؟

في سورة الأعراف جاء قوله: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.

يا لروعة هذا التحول.

ما إن تبين له وجه الأمر، حتى لم يكابر، ولم يستمر في حدة اللحظة الأولى، بل عاد فوراً إلى الله بالدعاء لنفسه ولأخيه، وهذا من دلائل عظمة موسى: أن قوته ليست فقط في شدة غيرته، بل أيضاً في سرعة رجوعه إلى العدل والرحمة حين يتبين له موضع الحق، فالنفوس الصغيرة قد تغضب ثم تستحيي من التراجع، أو ترى في التصحيح انتقاصاً من صورتها.

أما النفوس النبوية فلا تعبد صورتها، بل تعبد الله، ولذلك لا تجد حرجاً في أن تنتقل من الحدة إلى الاستغفار، ومن القبض إلى الرحمة، إذا ظهر لها ما لم يكن ظاهراً في أول الصدمة.

وفي هذا درس نادر: أن القوة الأخلاقية ليست في ألا تتأثر أبداً، بل في أن تملك شجاعة التصويب بعد التأثر. وأن من صدق مع الله هان عليه أن يعترف ضمناً بأن حرارة اللحظة لم تكن كافية وحدها للحكم، فيرجع إلى الرحمة من غير أن يشعر أنه خسر شيئاً من مقامه.

سابعاً: مواجهة السامري — لماذا لم يكتفِ موسى بتوبيخ القوم؟

قال تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ}.

هذه الآية تدل على بصيرة قيادية عظيمة.

فموسى لا يذوب في العموميات، ولا يكتفي بلعن الفتنة في مستوى الجماعة فحسب، بل يذهب إلى صانعها، لأنه يعلم أن الفتنة ليست فقط في قابلية الناس، بل أيضاً في اليد التي صاغتها، والعقل الذي دبّر لها، واللسان الذي زينها، ومن هنا كان لا بد أن تُعرى الفتنة عند مصدرها، لا عند آثارها فقط.

وسؤال موسى هنا: {فَمَا خَطْبُكَ} ليس سؤال استعلام ساذج، بل سؤال كشفٍ ومساءلة: ما شأنك؟ ما قصتك؟ ما الذي حملك على ما صنعت؟ ما موقعك الحقيقي من هذا الخراب؟ إنه استدعاء لصانع الفتنة إلى فضاء البيان بعد أن كان يتحرك في فضاء الإغواء.

وهذا يعلمنا أن الإصلاح الحقيقي لا يكتفي دائماً بتسكين الجماهير المضللة، بل لا بد له أيضاً من فضح مهندسي التضليل، لأن الباطل إذا بقي رأسه مختفياً أمكنه أن يعيد إنتاج نفسه من جديد.

ثامناً: جواب السامري — اللغة المتعالية لصانع الفتنة

قال: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا^ط وَكَذَلِكَ سَوَّاتُ لِيَ نَفْسِي}.

هذا الجواب وحده يكشف نوع النفس التي تصنع الفتنة.

إنه يبدأ بدعوى التميز: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ}.

أي إن السامري لا يقدم نفسه بوصفه مفسداً عادياً، بل بوصفه صاحب رؤية أعمق، وصاحب إدراكٍ خاص لم يصل إليه الآخرون، وهذه من طبيعة الكثير من المفتونين المضللين: يحيطون باطلهم بهالة من “الخصوصية” و”السر” و”النفاذ” و”الرؤية التي لا يدركها العامة”. وكأن الفتنة لا تكتمل عندهم إلا إذا لبست ثوب التميز المعرفي، حتى يغري ذلك القلوب التي تعشق الإحساس بأنها تقف على مستوى أعلى من الباقيين.

ثم يختم بقوله: {وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي}.

وهذه الجملة، على قصرها، تفضح العمق الحقيقي لكل ذلك الادعاء: إنه تسويل النفس.

كم هو عجيب هذا الانكشاف. بعد دعوى البصيرة الخاصة، وأثر الرسول، والصياغة الملتبسة، ينتهي الأمر إلى الحقيقة الساذجة المرة: النفس سوّلت. أي إن كل هذه البنية الفتنوية، بكل ما فيها من زخرف وتبرير، تعود في أصلها إلى نفسٍ استرسلت مع هوىٍ منحرف، ثم لبست له لباس الرؤية.

وهذا من أعظم قوانين الانحراف: كثيرٌ من الباطل الذي يبدو عالي البناء في خطابه، معقدًا في تبريره، له جذورٌ متواضعة جدًا في الحقيقة: هوى سوّلته النفس، ثم بُني حوله خطابٌ يجمّله.

تاسعًا: عقوبة السامري — لماذا جاءت عزلةً اجتماعية؟

قال له موسى: {فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ}.

هذه العقوبة شديدة الدلالة.

إن السامريّ الذي عبث بالجماعة، واستثمر هشاشتها، وأدخل عليها فتنةً عظيمة، يُدفع إلى صورةٍ من العزلة والنبد، وكأن العقوبة ليست فقط على مستوى جسده أو حياته، بل على مستوى موقعه من المجتمع؛ لأن من لوث الحياة الجماعية بفتنة كهذه لا يترك بعدها موضعًا سليمًا في نسيجها.

وفي ذلك معنى رفيع: أن بعض المفسدين لا تكون عقوبتهم المناسبة فقط في الألم المباشر، بل في سقوط أهليتهم الاجتماعية والأخلاقية. لقد كان يتحرك داخل الجماعة مؤثراً فيها، مصوغاً لخيالاتها، مكوّناً لعجلها، فإذا به يُدفع إلى حالة يقول فيها: {لَا مِسَاسَ}. وكأن من عبث بحدود الجماعة الروحية والأخلاقية حُكم عليه أن يذوق نوعاً من الانفصال الذي يعكس ما أحدثه من تمزيقٍ داخلي فيها.

ثم قال له: {وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}.

هنا يبلغ التفكير الرمزي للوثن ذروته، ليس المطلوب أن يُرفض معنى فقط، بل أن يُزال الرمز إزالةً حاسمة، حتى لا يبقى في النفوس شيءٌ من هيبته أو قابليته للعودة، يُحرق، ثم يُنسف في اليمِّ نسفاً، أي إن الوثن لا يُعامل هنا كخطأٍ فكريٍّ مجرد، بل كجسمٍ ينبغي إلغاء أثره الحسي والرمزي معاً، لأن بعض الفتن لا يكفي فيها التنفيذ النظري، بل لا بد من كسر صورتها التي علقت في أعين الناس وقلوبهم.

عاشراً: بعد تحطيم العجل — ما الحقيقة التي يعيد موسى بناء الأمة عليها؟

قال تعالى: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

يا لها من عودة مهيبة إلى الأصل.

بعد العجل، والصوت، والذهب، والعكوف، والفتنة، والتسويل، والتأويل، والتوتر، يعيد موسى القوم إلى الجملة التي لا نجاة لهم إلا بها: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ}.

كأن كل علاجٍ لا يرجع في النهاية إلى هذا الأصل يبقى ناقصًا، فالفتنة مهما تنوعت صورها، لا يُعاد بناء الجماعة بعدها إلا بأن يُردَّ الإله إلى موضعه الحق في القلوب.

ثم تأمل هذا الوصف: {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

ما أعمقه في هذا السياق.

فالعجل جسدٌ محدود، وصوتٌ مصطنع، ومادةٌ محصورة، أما الله فهو الذي وسع كل شيءٍ علمًا.

كأن موسى يريد أن ينقلهم من الوثن الذي يضيق عن أن يملك لنفسه نفعًا أو ضرًا، إلى ربٍّ لا يحده شيء، ولا يغيب عنه شيء، ولا يحتاج أن يُرى جسدًا حتى يكون حاضرًا بعلمه وقدرته وربوبيته.

وهكذا فإن علاج الوثنية لا يكون فقط بتحقيق الوثن، بل أيضًا بتعظيم الله في الوعي على الوجه الذي يجعل الوثن تافهًا بالضرورة.

أحد عشر: ما الفرق بين الغيرة على التوحيد والانفعال الأعمى؟

هذا الفصل كله يجيب عن هذا السؤال.

الغيرة على التوحيد تتجلى في غضب موسى، وفي حزنه، وفي شدته، وفي تحطيم العجل، وفي مساءلة السامري، وفي عدم تمبيع الفتنة.

لكنها لا تنقلب إلى انفعال أعمى، لأن موسى بعد أول الصدمة:

استمع إلى هارون، وعاد إلى الاستغفار، وفرّق بين صانع الفتنة والمفتونين،
وعالج الرمز كما عالج الفكرة،

ثم أعاد بناء الأصل العقدي في القوم.

أما الانفعال الأعمى فكان سيكفيه أن يصبّ غضبه على الجميع بلا تمييز،
أو أن يستمر في اتهام هارون بعد أن تبين له اجتهاده، أو أن يكتفي بتمزيق
العجل دون ردّ الناس إلى أصل التوحيد، أو أن يفرغ ألمه في صورة
فوضى انتقامية. لكن موسى لم يفعل ذلك. ولهذا كان غضبه نبويًا، لا ذاتيًا.
غضبٌ محكومٌ بالحق، لا محرّكٌ للحق من عند نفسه.

وهذا درسٌ ثمين جدًا: أن الشدة في مقامها ليست ضد الحكمة، بل قد تكون
من تمامها، بشرط أن تبقى متصلةً بالوحي، وبالتفريق بين المواقع،
وبالرجوع إلى الرحمة حين ينكشف موضعها.

**اثنا عشر: المعنى الأكبر — الأمة لا تُبنى فقط بالمعجزة، بل أيضًا بقدرتها
على اجتياز الفتنة داخليًا**

لو انتهت قصة موسى عند البحر، لظن بعض الناس أن العظمة كلها في إسقاط
الطاغية، لكن هذا الفصل يقول لنا: لا، بل ثمة عظمة أخرى أشقّ وأعمق،
وهي أن تُعاد صياغة الأمة بعد أن تكشف ضعفها الداخلي. وهذا يحتاج إلى
أمرين معًا: غيرةٍ لا تساوم في التوحيد، وحكمةٍ لا تخطئ بين الناس في
مواقعهم.

ومن هنا فإن موسى في هذا الفصل لا يظهر فقط بوصفه هازم فرعون، بل
بوصفه جراح أمةٍ انكشفت جراحها الباطنة. إنه يشقّ موضع الفتنة، ويستخرج

سمّها، ويقطع موضع العفن الرمزي فيها، ثم يعيد القلب إلى أصله: إنما إلهكم الله.

مفتاح الفصل التاسع

يمكن تكثيف هذا الفصل في العبارة الآتية:

الغيرة الصادقة على التوحيد لا تكتفي بالغضب من الفتنة، بل تميّز بين مواقع الناس فيها، وتواجه رأسها، وتهدم رمزها، ثم تعيد بناء الأمة على أصل: إنما إلهكم الله.

لكن قصة موسى لا تقف عند فرعون والعجل والألواح، بل تفتح بابًا آخر من أبواب التربية أشد رهافةً وغموضًا:

باب الحدود بين العلم البشري والعلم الذي يطلع الله عليه من يشاء،

حين يلتقي موسى ذلك العبد الذي علّمه الله من لدنه علمًا، في قصة الخضر.

وهنا ينتقل الكتاب من صخب المواجهة والفتنة إلى أدبٍ آخر:

كيف يتعلم النبيُّ الكبير أن فوق علمه علمًا؟

ولماذا كان موسى، صاحب الرسالة والكتاب والكلام، محتاجًا إلى هذه الرحلة؟

وما الذي تكشفه القصة عن صبر العقل أمام أقدارٍ لا يفهم معناها في لحظتها؟

الفصل العاشر

موسى والخضر: حين يتعلّم حاملُ الرسالةِ أدبَ الوقوفِ عند حدودِ ما أُعطي

ليس كلُّ ما يجهله الإنسانُ خطأً في العالم، بل قد يكون موضعَ سرٍّ لم يؤذَنَ له بعدُ أن يراه

إذا كانت الفصول السابقة قد أظهرت موسى عليه السلام في مقام المواجهة، والقيادة، والغيرة على التوحيد، وبناء الأمة وسط الزلازل والفتن، فإن هذا الفصل يجيء ليكشف وجهًا آخر من وجوه العظمة النبوية، لا يقل رفعةً عن كل ما سبق، بل لعله من أشدها ندرةً في التربية الإيمانية: وجهُ التواضع للعلم، والقبول بأن ما عندك - على جلاله - ليس نهاية ما في خزائن الله، وأن العقل المضىء بالوحي نفسه قد يُبتلى بمواضع يعجز عن فهمها في اللحظة الأولى.

وهنا نبغ واحدةً من أبدع القصص في القرآن، لا لأنها فقط تجمع بين نبيٍّ كريم وعبدٍ صالح علّمه الله من لدنه علمًا، بل لأنها تضع الإنسان كله أمام سؤالٍ مزلزل:

ماذا تفعل حين ترى في الواقع ما لا تملك له تفسيرًا أخلاقيًا مباشرًا؟

وماذا تفعل حين يبدو لك أن الأحداث تسير على غير ما تعرفه من ظواهر العدل والحكمة؟

وهل كل ما لا تفهمه النفس في ساعته يكون باطلاً؟

أم أن من تمام العبودية أن تعرف أن الله في العالم علمًا وتقديرًا وتدبيرًا قد لا تنكشف لك طبقاته كلها دفعةً واحدة؟

وقد ناقشت في كتابي (سورة الكهف هندية النجاة من الفتن)، هذا الأمر ولكن لأننا هنا في سياق الحديث الخاص عن نبي الله موسى لا بد من الحديث عن ذلك.

إن قصة موسى والخضر ليست قصة معلوماتٍ زائدة، بل قصة تهذيبٍ للنظر، وتأديبٍ للعقل، وتوسيعٍ للوعي حتى لا يختزل الحكمة الإلهية فيما يبلغه فهم الإنسان من ظاهر المشهد.

أولاً: لماذا احتاج موسى إلى هذه الرحلة؟

هذا السؤال جوهريٌّ جدًا.

موسى نبيٌّ مكلم، وصاحب رسالة، وصاحب كتاب، وقائد أمة، ومواجه فرعون، ومربي قوم، وحامل الألواح، فما الذي يبقى بعد ذلك حتى يقال له ضمناً: ثمة علم آخر ينبغي أن ترحل إليه؟

الجواب أن القرآن يريد أن يربّي فينا معنىً بالغ السمو: أن الكمال الإنساني لا يكون بأن تحيط بكل شيء، بل بأن تعرف موضعك من العلم، وتظل قابلاً لأن تتعلم ما لم تُعطَ إياه.

فموسى لم يكن ناقصاً في رسالته، ولا قاصراً في وحيه، لكن الله أراد أن يريه - ويرينا من خلاله - أن العلم ليس كتلةً واحدة، وأن ما يُعطى للإنسان من نور في بابٍ ما لا يعني أنه أُعطي مفاتيح كل الأبواب.

ومن هنا فإن الرحلة إلى الخضر لم تكن تقليلاً من شأن موسى، بل إكمالاً لجماله؛ لأن من أعظم ما يَجْمَلُ العبد عند الله أن يظلّ، مهما علا، قابلاً لأن يخرج من موضع المُعَلِّم إلى موضع المتعلّم، ومن موقع البيان إلى موقع الإنصات. وهذه منزلة لا يبلغها إلا من تحرر من عبادة صورته، ومن ظنّه الخفيّ أنه قد استوفى كل ما يحتاج إليه.

ثانياً: موسى في مقام الطلب — عظمة النبي حين يتواضع

قال تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا}

ثم قال موسى: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}.

يا لها من جملة.

ما أعذبها، وما أرقاها، وما أعمقها في بناء النفس.

لم يقل: علّمني، بصيغة الأمر أو المتصدر.

ولم يقل: أنا موسى، وصاحب الوحي، فهات ما عندك.

بل قال بأدبٍ كامل: {هَلْ أَتَّبِعُكَ}.

ثم لم يطلب العلم كله، بل قال: {مِمَّا عُلِّمْتَ}.

ثم لم يطلب مجرد معرفةٍ مجرّدة، بل طلب رشداً.

هذه الجملة وحدها تصلح أن تكون ميثاقاً لطالب العلم إلى آخر الدهر.

فيها التواضع، وفيها الإقرار بفضل الله على غيرك، وفيها الوعي بأن بعض ما عند الناس هو من تعليم الله لا من ذاتهم، وفيها إدراك أن العلم الحقيقي ليس زخرفة ذهنية، بل رشد يهدي العقل والقلب والوجهة.

ومن هنا نرى موسى في صورة لا تقل جلالاً عن صورته أمام فرعون: صورة النبي العظيم الذي لا يستنكف أن يقول لعبدٍ علّمه الله: هل أتبعك؟ وهذه - في الحقيقة - بطولة من نوع آخر؛ لأن مواجهة الطغيان تحتاج شجاعة، لكن مواجهة النفس حتى تقبل التعلم تحتاج شجاعة أدقّ وأندر.

ثالثاً: {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} — لماذا كان العجز عن الصبر متوقعاً؟

قال له الخضر: {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}.

هذه الآية من أعظم ما كُتب في طبيعة العقل الإنساني.

إن الخضر لا يرفض موسى تكبراً، بل يصف له طبيعة التجربة: ستجد صعوبةً في الصبر؛ لأنك ستري أموراً تصطدم بظواهر ما عرفتّه من المعايير، ولأنك لن تكون قد أُعطيت الخبر الكامل الذي يفسرها لك في لحظتها.

ومن هنا فالعجز عن الصبر ليس دائماً ناشئاً من سوء خلق، بل قد يكون ناشئاً من قصور الإحاطة، الإنسان يستعجل الإنكار لأنه لا يرى إلا الطبقة الأولى من الحدث، بينما تكون الطبقات الأعمق ما تزال محجوبة عنه.

وهذا القانون لا يخصّ موسى وحده، بل يخصّ البشر جميعًا. كم من مرة يضيق الإنسان بقضاءٍ أو مشهَدٍ أو انقلابٍ أو فقدٍ أو تأخِرٍ أو منعٍ؛ لا لأنه متيقن من عبثيته، بل لأنه لم يُحِط به خبرًا. رأى الواجهة، فحسبها الحقيقة كلها. رأى الجرح، فحسب أنه النهاية. رأى الانكسار، فظن أن الحكمة غابت. بينما كانت في باطن الأمر أسرارٌ لم يُؤدّن له بعدُ أن يراها.

ومن هنا فالقصة لا تدعونا إلى تعطيل العقل، بل إلى تهذيبه؛ لا إلى ترك الحكم على الأشياء بلا معيار، بل إلى أن يعرف العقل حدود مساحته، وألا يتحول قصور رؤيته إلى اتهامٍ سريع لحكمة الله.

رابعًا: جواب موسى — الوعد بالصبر لا يكفي وحده إن لم يُختَبَر

قال: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}.

هذا الجواب جميلٌ وصادق، وفيه أدبٌ ظاهر، ولا سيما في قوله: {إِنْ شَاءَ اللَّهُ}. لكن القصة ستكشف لنا أمرًا دقيقًا جدًّا: أن الوعد بالصبر شيء، والدخول في مواطن الصبر شيء آخر.

فالإنسان قبل الامتحان قد يرى نفسه قادرًا على الاحتمال، لأنه يتصور الحدث تصورًا إجماليًّا، أما إذا دخل إلى تفاصيله، وصدّمْ حسّه الأخلاقي والعقلي، انكشف له أن الصبر على ما لا يفهمه أصعب بكثير مما كان يتوقع.

وهذا ليس طعنًا في صدق موسى، حاشاه، بل هو تعليم لنا: لا تغترّ كثيرًا بقدرتك المتخيلة على تحمّل ما لم يأتِ بعد. فالعبد قد يكون صادق النية في

الصبر، لكن الله يكشف له بالابتلاء أن في الداخل حاجةً إلى سعةٍ أكبر، وسكونٍ أعمق، وتسليمٍ أرسخ. ومن هنا كانت هذه الرحلة مدرسةً عملية لا خطاباً نظرياً.

خامساً: خرق السفينة — حين يبدو الفعل ظلماً وهو في باطنه رحمة

قال تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا}

فقال موسى: {أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ۖ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}.

هذه أول صدمة.

المشهد واضح في عين الظاهر: قومٌ حملوهما بغير أجر، والسفينة وسيلة نجاتهم ومعاشهم، ثم يأتي من يخرقها، وهذا في منطق الظاهر جناية.

ولذلك كان اعتراض موسى مفهوماً بحسب ما رآه، وهنا يظهر أن موسى لا يعترض من باب التمرّد على الله، بل من باب الوفاء للميزان الذي يعرفه: لا يجوز الإضرار بالمحسنين، ولا خرق وسيلة معاشهم بغير حق ظاهر.

لكن التفسير اللاحق سيكشف أن وراء هذا الخرق حفظاً أعظم؛ إذ كانت هناك سلطة غاصبة تأخذ كل سفينة صالحة غصباً، فصار العيب الجزئي الظاهر سبباً في إنقاذ السفينة من المصادرة الكلية، وهنا يفتح القرآن باباً هائلاً من الفهم: أن بعض النقصان الذي يؤلمك قد يكون حمايةً من استئصالٍ أكبر، وأن بعض الكسور الصغيرة في ظاهر العمر قد تمنع خراباً أشد لو بقيت الصورة كاملة كما تحب.

ليس معنى هذا أن كل خرق نفهمه فوراً كذلك، لكن معنى القصة أن الإنسان لا ينبغي أن يختزل الحكمة الإلهية في الشكل الأولي للحدث. قد ترى العيب، ولا ترى ما دفعه الله به من خراب أعظم. ترى الفقد الجزئي، ولا ترى الهلاك الكلي الذي صُرِفَتْ عنه. ترى الكسر، ولا ترى ما حفظه هذا الكسر من أصل حياتك أو دينك أو مصيرك.

سادساً: قتل الغلام — الموضع الذي تصطدم فيه النفس بأشد الأسئلة

قال تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ}

فقال موسى: {أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}.

هذا هو الموضع الأشد ثقلًا في القصة، والأعنف اصطدامًا بالعقل الظاهر. وليس المقصود هنا أن نسترسل في تفاصيل عقدية أو غيبية خارجة عن المقام، بل أن نتأمل البنية التربوية التي تصنعها القصة: لماذا وُضع موسى أمام مشهد يبلغ هذا الحد من الغرابة على ميزان الظاهر؟

لأن الله يريد أن يربِّي فينا أن بعض أقداره لا يمكن أن تُفهم من نافذة الحدث اللحظي وحده، فالغلام في ظاهره نفس زكية، وقتله في ظاهر الأمر فاجعة لا تُحتمل، لكن التفسير يكشف أن بقاءه كان سيجرُّ أبويه المؤمنين إلى طغيان وكفر، وأن الله أراد أن يبدلهما خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً، وهنا نبليغ موضعاً رهيفاً جداً: أن الله لا يدبّر الحياة فقط على أساس اللحظة المنظورة، بل على أساس المآلات الكاملة التي لا يحيط بها الإنسان.

وهذا يعلمنا - بقدر ما يطيقه المقام - أن ما ينكسر في حياتنا على نحو لا نفهمه قد يكون مرتبطاً بعلم إلهي يتجاوز بكثير ما نراه من حدود اللحظة.

ليس المعنى أن نتكلف تفسير كل مصيبة بعينها، فهذا ليس إلينا، وإنما المعنى أن نتأدب أمام الغيب، وألا نطن أن عدم فهمنا لشيء يعني عدم وجود السر.

سابعًا: إقامة الجدار — لماذا يُعان من بخلوا؟

قال تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ} فقال موسى: {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}.

هذا الموضوع يختلف عن سابقه، هنا ليس ثمة خرق ولا قتل، بل إحسان في غير موضعه الظاهر، أهل القرية لئام، امتنعوا عن الضيافة، ثم يجدان جدارًا لغلامين يتيمين فيقيمه الخضر بلا أجر، في ظاهر الحساب العقلي المباشر يبدو هذا خلاف مقتضى المعاملة: هؤلاء لا يُحسنون، فلماذا يُحسن إليهم؟ وكان يمكن على الأقل أن يؤخذ أجر.

لكن التفسير يكشف أن تحت الجدار كنزًا لغلامين يتيمين، وأن أباهما كان صالحًا، فأراد الله أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، وهنا تنفتح نافذة ثالثة من نوافذ الحكمة: أن بعض الخير لا يتصل باللحظة الأخلاقية السطحية وحدها، بل يتصل بأمانات مخبوءة، وحقوق مستقبلية، وآثار صلاح سابقٍ يمتد في الزمن، فليس كل إحسان يُبذل لمن أمامك مباشرةً لكونه أهلاً له الآن، بل قد يكون الموضوع في الحقيقة متعلقًا بمن وراءه، أو بما تحت السطح، أو بحقٍ مؤجل تحفظه عناية الله حتى يحين أوانه.

ومن أعجب ما في هذا المشهد أن الجدار قام لأجل يتيمين غائبين، وبسبب صلاح أب مات. أي إن القصة تفتح لنا أفقاً من الرحمة الإلهية يتجاوز اللحظة المباشرة: صلاحك قد يحرس أبنائك من بعدك، وعناية الله قد تشتغل في العالم على أشياء لا تراها العين، وتظل تتشكل بصمتٍ تحت طبقاتٍ من البخل والخراب واللؤم الظاهر.

ثامناً: لماذا تكرر اعتراض موسى؟

لأن المقصود من القصة ليس أن موسى أخفق، بل أن يُظهر لنا - من خلال تكرار الاعتراض - الطبيعة البشرية للعقل حين يُصدم بما لم يُحِط به خبراً. فلو سكت من أول الأمر بلا اضطراب، لما ظهرت لنا حاجتنا نحن إلى هذا الدرس، ولما انكشفت لنا المسافة بين ظاهر الحكم وباطن الحكمة. إن اعتراضاته الثلاثة هي في الحقيقة مرآة الإنسان كلّها: نحن أيضاً نخرق السفينة الأولى في حياتنا فنعترض، ثم يُقتل "غلام" من آمالنا أو تصوراتنا فنعترض أشد، ثم يُقام "جدار" في غير الموضع الذي نراه مستحقاً فنحتار. والقصة تريد أن تقول لنا: نعم، هذا طبيعي من حيث أصل البشرية، لكن لا تقف عند هذا الحد، بل ارتفع إلى أدب الانتظار حتى تتجلي لك بعض الوجوه، أو حتى تسلم فيما لن يُكشف لك.

تاسعاً: {هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} — ليس كل علمٍ يُعطى لكل أحد وفي كل وقت

لما انتهت المواقف، قال الخضر: {هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}.

وهنا نصل إلى معنى بالغ الرهافة: أن صحبة العلم اللدني ليست أمراً عابراً يسع كل أحد بمجرد الرغبة، ثمّة شروط قلبية وصبرية ومعرفية لا بد منها،

وإلا انقطعت الصلابة. وهذا لا ينقص من قدر موسى، بل يثبت مرة أخرى أن تنوع العلوم يقتضي تنوع الأحوال المؤهلة لها. فقد يكون الإنسان إماماً في باب، لكنه لا يُعطى في تلك اللحظة مفاتيح باب آخر إلا بقدرٍ محدد.

ومن هنا فلا ينبغي أن يفهم المؤمن العلم على أنه تراكم كميٍّ وحسب، بل على أنه أيضاً أمانات يضعها الله حيث يشاء، ويربطها بأقدارٍ مخصوصة. وهذا يعلم العبد ألا يطغى بعلمه، ولا يستكثر على غيره ما آتاه الله، وألا يظن أن كل ما لم يُفتح له بابُه غير موجود.

عاشراً: التفسير — لماذا كُشفت الأسرار في النهاية؟

قال الخضر بعد ذلك: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}.

كُشفت الأسرار لا لأن كل غيبٍ سيُكشف لنا في هذه الدنيا، بل لأن المقصود من القصة أن تؤسس القاعدة:

هناك ظاهر، وهناك باطن.

وهناك وقت يُحجب فيه الباطن امتحاناً.

وهناك وقت يكشف الله فيه بعضه رحمةً وتعليماً.

فالتفسير الختامي هنا ليس مجرد حلٍّ لغزٍ سرديٍّ، بل هو ردّ الاعتبار للعالم أمام حكمة الله، كأن الله يقول: لا تتعجلوا اتهام الأقدار، فكم من سفينة مخرومة كانت محفوظة، وكم من فقدٍ موجه كان وراءه صرفٌ شرٍ أعظم، وكم من جدارٍ لا تفهمون إقامة كان يحفظ رزق يتيمين لأجل صلاح أبيهما.

لكن ينبغي أن ننتبه إلى أن القصة لا تعطينا رخصةً لادعاء معرفة أسرار الأقدار في كل نازلة تخصنا أو تخص غيرنا.

ليس هذا مرادها، مرادها أن تزرع فينا أدب الإمكان: إمكان أن يكون وراء ما لا نفهمه حكمة لا نراها، وهذا وحده يكفي ليمنع القلب من التمرد، ويمنحه قدرةً على الصبر، ويجعله أكثر لطفاً في حكمه على ما يجري.

أحد عشر: ما الذي أضافته هذه الرحلة إلى بناء موسى؟

أضافت إليه، في ما أضافت، ثلاثة أمور عظيمة:

أولها: التوسعة.

فقد خرج من إطار الحكم على الظواهر وحدها إلى وعيٍ أرحب بسنن الله الخفية في التدبير.

وثانيها: أدب الوقوف.

أي أن يعرف الإنسان متى يتكلم، ومتى ينتظر، ومتى يعترف أن بين يديه شيئاً لم يُؤدّن له بعد أن يفهمه.

وثالثها: الرحمة بالعالم.

لأن من أدرك أن كثيراً من الأحداث تحمل طبقاتٍ لا يراها، صار أقل عجلةً في القسوة على أقدار الله، وأقلّ تهوُّراً في إطلاق الأحكام النهائية على الوقائع من ظاهرها الأول.

وهذا مهم جدًا؛ لأن موسى، بعد هذه الرحلة، ليس أقل حزمًا في التوحيد، ولا أقل شدةً على الباطل، بل هو أوسع أفقًا في فهم التعقيد الذي يجري به قدر الله في العالم. فكأن الله لم يرد له فقط أن يعرف كيف يواجه فرعون، بل أيضًا كيف يهدأ قلبه أمام المساحات التي لا تُدار بمنطق المواجهة الظاهرة، بل بمنطق الغيب الذي يعمل في الطبقات السفلى من الحدث.

**اثنا عشر: المعنى الأكبر — ليس كل تأخر شرًا، وليس كل كسر ضياعًا،
وليس كل غموض عبثًا**

إذا أردنا أن نصل إلى قلب هذا الفصل، فهذه هي الجملة الجامعة:

إن الإنسان لا يرى من الحدث إلا واجهته الأولى، أما الله فيدبر الحدث من أوله إلى منتهاه، ومن ظاهره إلى باطنه، ومن لحظته إلى مآله.

ولهذا فكم من شيء خفنا منه وكان فيه نجاتنا.

وكم من شيء بكيناه وكان الله يصرف به عنا ما هو أشد.

وكم من شيء استغربنا وقوعه، ثم تبين - أو سنعلم عند الله - أنه كان جزءًا من شبكة رحمة أو عدل أو حفظ أو استدراك لا يحيط بها العقل من أول نظرة.

ومن هنا فالقصة لا تريد أن تجعلنا سلبيين أمام العالم، بل أن تجعلنا أكثر أدبًا مع الله، وأكثر تواضعًا في الفهم، وأكثر صبرًا إذا انكسرت مقاييسنا المؤقتة أمام تقديره الأعلى.

مفتاح الفصل العاشر

يمكن تلخيص هذا الفصل في العبارة الآتية:

من تمام العلم أن تعرف أن فوق ما تعلمه علمًا، ومن تمام العبودية أن تصبر حيث لا تُحيطُ خبرًا، حتى لا تنتهم حكمة الله بحدودِ نظرك.

بعد هذه الرحلة العجيبة، يعود موسى في القرآن إلى صورته الكبرى الأخرى:

صورة النبي الذي لا يكتفي بتحرير قومه من فرعون، ولا بردهم من العجل، بل يمضي معهم في طريقٍ أشقّ: طريق التكوين الشاق لجماعةٍ كثيرة الاعتراض، ثقيلة الامتثال، سريعة التملل.

وهنا يبدأ فصلٌ آخر من أعقد فصول القصة:

كيف يتعامل موسى مع أمةٍ أُخرجت من الاستضعاف، لكنها لم تتربَّ بعدُ على مقتضيات الحرية والطاعة؟

ولماذا كان حمل الجماعة المؤمنة المتعثرة أصعب أحيانًا من مواجهة الطاغية نفسه؟

الفصل الحادي عشر

موسى وبناء الجماعة المتعثرة: لماذا كان حمل قومه أرهق من مواجهة
فرعون؟

الطاغية الخارجي قد يسقط في لحظة، أما الإنسان الذي عاش طويلاً تحت
القهر فلا يُبنى إلا بمسيرٍ شاقٍ من التهذيب والتأديب والامتحان

إذا كانت مواجهة فرعون قد كشفت جلال التوحيد حين يقف في وجه
الاستعلاء، وإذا كانت فتنة العجل قد كشفت أن الأمة قد تنهار من داخلها بعد
النجاة إن لم يُستأصل ضعفها القديم، فإن هذا الفصل يفتح باباً آخر أشدّ تعباً
وأطول نفساً وأعمق استنزافاً للنبي القائد: باب التعامل مع جماعة كثيرة
التردد، سريعة الاعتراض، ثقيلة الامتثال، متعبة الوجدان، لم تكتمل بعد
أهليتها لحمل الرسالة التي أخرجت لأجلها.

وهنا نكتشف سرّاً عظيماً في قصة موسى عليه السلام: أن إسقاط الطاغية
ليس دائماً أصعب مراحل المشروع، بل قد يكون الأشدّ بعد ذلك هو إعادة
صياغة الإنسان الذي نجا من الطاغية. لأن الطاغية - مهما تعاضم - يقع
خارجك، أما الأمة التي ترافقك فهي تسكن في قلب المشروع نفسه، وما فيها
من ضعفٍ وتأخرٍ وتذمرٍ وحنينٍ إلى السهولة لا يُواجهه بالسيف، بل بالصبر،
والتعليم، والتذكير، والحدّ، والرحمة، والانكسار لله، وتكرار المحاولة بعد
المحاولة.

ومن هنا تبدو شخصية موسى عليه السلام في هذا الفصل في غاية العظمة؛ لأنه لا يظهر فقط بوصفه النبي الذي كسر جبروت فرعون، بل يظهر بوصفه المربي الذي يُستنزف في حمل جماعة لم تنضج بعد، ومع ذلك لا يتركها، ولا يكف عن أخذها نحو الله، وإن اشتد عليه أذاها وتكرر انكساره بها.

أولاً: لماذا كانت الجماعة المتحررة حديثاً أصعب مادة للتكوين؟

لأن القوم الذين خرجوا مع موسى لم يخرجوا من حياة مستقرة راشدة ثم عرّض لهم طاعية عابر، بل خرجوا من تاريخ طويل من الإذلال والاستضعاف والتفكيك النفسي.

لقد عاشوا زمناً وهم تحت عين فرعون، يألفون أن القرار يصنعه غيرهم، وأن الخوف يسبق تفكيرهم، وأن اللقمة والسلامة اليومية تغلبان المعنى الأكبر، وأن الهمّ المباشر يطغى على الأفق البعيد، وهذا التاريخ لا يُمحى بعبور البحر وحده، ولا حتى برؤية المعجزات.

فالحرية نفسها قد تكون عبئاً ثقيلاً على نفس لم تُربّ عليها، والطاعة لله وحده - مع ما فيها من سمو - قد تبدو لنفس معتادة على الانقياد القهريّ طريقاً مجهداً؛ لأنها تقتضي وعياً، وصبراً، ومسؤولية، وتركاً للشهوات، وتجاوزاً للحنين إلى المألوف القديم ولو كان مهيناً.

ومن هنا نفهم لماذا كان بنو إسرائيل كثيري الاعتراض: لا لأنهم ببساطة أشرار من أولهم إلى آخرهم، بل لأنهم جماعة خارجة من خرابٍ طويل، لم تُستخرج بعد من أنفسهم كل ترسبات ذلك الخراب.

وهذا يعلمنا أن بناء الأمم بعد الاستبداد ليس قصيدةً حماسيةً، بل عملٌ بالغ القسوة والتعقيد؛ لأنك لا تتعامل مع جموعٍ حيادية، بل مع نفوسٍ جُرحت طويلاً، واختلّ ذوقها، وضعفت قدرتها على الاحتمال، وربما صارت ترى الراحة في الأشياء التي تُبقيها صغيرة.

ثانياً: الأرض المقدسة — لماذا كان هذا الاختبار كاشفاً لجوهرهم؟

قال تعالى: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ}.

هذه الآية شديدة الكثافة.

فيها وعد.

وفيها تكليف.

وفيها تحذير.

وفيها فتحٌ لبابٍ جديدٍ من التاريخ.

لكن كيف استقبل القوم هذا كله؟ لم يستقبلوه بعين الوعد، بل بعين الخوف القديمة. قالوا: {يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا}.

هنا نرى بوضوح أن البحر لم يشفع وحده لذاكرتهم النفسية. فما زالوا يفسرون الواقع بمنطق: نحن وهم، وهم أقوى، إذن نتراجع، كأن كل ما جرى من قبل لم يتحول بعدُ إلى ثقةٍ وجودية بالله، هم يعرفون الخبر، لكن لم تترسخ فيهم

بعدُ روحه، ولهذا فإن الأرض المقدسة لم تكن اختبارًا عسكريًا فحسب، بل اختبارًا: هل صار الوعد فيهم أقوى من المشهد المرعب، أم ما تزال الأجساد خرجت من العبودية والعقول لم تخرج بعد؟

قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَىٰ عَالِيُونَ ۚ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ}.

ما أجمل هذا النداء. إنه لا ينكر وجود الجبارين، لكنه يرفض أن تتحول رؤيتهم إلى قدرٍ يشلّ الطاعة. إنه يستدعي فيهم الأصل الذي فقد: {وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا}. لكن القوم كانوا قد وصلوا إلى طورٍ آخر من الانكسار الداخلي، طورٍ لا يكتفي بالتراجع، بل يقذف العبء كله على القائد في جملةٍ لا تكاد تُقرأ دون وجع: {يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاهْبِثْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ۗ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}.

هذه من أكثر الجمل فداحة في القصة كلها.

إنها ليست خوفًا فقط، بل تخليًا عن الشرف نفسه. ليست مجرد ضعف أمام العدو، بل ضعف أمام مقتضى الإيمان. إنهم لا يقولون: ادعُ لنا، أو زدنا يقينًا، أو بيّن لنا، بل يقولون: اذهب أنت وربك.

أي إنهم فصلوا أنفسهم عن جوهر الرسالة، وأرادوا أن يكون الحق معركة غيرهم، وأن تبقى أجسادهم في منطقة القعود.

ومن هنا تظهر حقيقة بالغة المرارة: أن بعض الناس يريدون النجاة دون ثمنها، والوعد دون طريقه، والأرض دون اقتحامها، ويريدون من الأنبياء أن يحملوا عنهم ما لا يُحمل إلا بمشاركة النفوس في الجهد والتوكل والطاعة.

ثالثًا: لماذا كان هذا الموقف أقسى على موسى من طغيان فرعون؟

لأن فرعون كان عدوًا واضحًا، أما هؤلاء فهم قومه، الذين شقّ من أجلهم البحر، وتحمل لأجلهم ما تحمل، وأُعطى من الآيات ما أُعطى، ثم يقولون له هذه الكلمة. إن أذى القريب في قلب المشروع أشد من أذى البعيد الخارج عنه؛ لأنك تواجهه في الثاني خصومة واضحة، أما في الأول فتواجهه خذلانًا من الداخل.

ولهذا قال موسى: {رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي} فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.

يا لهذه الآية.

ما أوجعها، وما أصدقها، وما أكثر ما تكشف من ثقل القيادة الرسالية.

إن موسى هنا بلغ من جهة القوم حدًا لم يبق معه إلا أن يرفع الحقيقة إلى الله: لا أملك إلا نفسي وأخي، أي إن الجماعة التي كان يُفترض أن تكون معه لم تصر بعد في الحقيقة ملك يمين الرسالة من جهة الطاعة والامتثال، إنهم حاضرون عددًا، لكنهم غائبون روحًا، موجودون جسدًا، لكنهم لم يدخلوا في مستوى المشاركة الذي يليق بالوعد.

وهذا الاعتراف لا يدل على يأسٍ شخصي، بل على وصول الأمر إلى موضع الحكم الإلهي. لقد بذل ما يمكن بذله من البلاغ، والبيان، والتذكير، والآيات، فلم يبق إلا أن يفصل الله بين المسارين. وهنا تبرز إحدى أعظم حقائق القيادة: أن القائد ليس مالكا للقلوب. قد يبذل، ويصبر، ويحمل، ويتوجع، لكن يبقى في

النهاية عبداً لا يملك إلا ما مكنه الله منه، فإذا استعصى قومٌ على كل ذلك، لم يبق إلا ردّ أمرهم إلى الله.

رابعاً: التيه — هل كان عقوبةً فقط أم مدرسة؟

قال تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ}.

كثيرون يقرؤون هذه الآية بوصفها عقوبةً فقط، وهذا صحيح من وجه، لكن النظر الأعمق يكشف أنها كانت أيضاً إعادةً تربيةً لجيلٍ لا يصلح أن يدخل الأرض بالمواصفات القديمة، فالتيه هنا ليس مجرد ضياعٍ جغرافي، بل فضاءٌ طويل يُستهلك فيه الجيل العاجز عن حمل الوعد، وتتهياً فيه إمكانات جيلٍ آخر أكثر قابليةً للتكوين.

إن الأرض المقدسة لا يدخلها قومٌ يهربون من أول مشهد، ويقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا. فكان لا بد من زمنٍ يذوب فيه هذا النمط، ويُعاد تشكيل النفوس بعيداً عن أثر مصر القديم، وعن الجبن المتجذر، وعن التعلق الفاسد بالسلامة العاجلة، وهكذا يصير التيه - على قسوته - رحمةً قاسية؛ يمنع القوم من أن يحملوا ما لا يطيقون، ويمنع الرسالة من أن تستودع في نفوسٍ لم تنضج لها بعد.

ومن هنا نتعلم أن بعض التأخير في تحقيق الوعود ليس نقضاً لها، بل حفظاً لها من أن تقع في غير أهلها. قد يتعجل الناس الثمرة، لكن الله أحياناً يؤخرها حتى تتكوّن الشجرة التي تحتملها.

خامساً: الطعام والمن والسلوى — لماذا حنّوا إلى الأدنى؟

في موضع آخر قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}.

ومع ذلك قالوا: {يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا}.

هذا الموضع من أعمق المواضع كاشفاً لنفسية الجماعة المتعبة.

إنهم ليسوا فقط يعترضون على الخطر، بل يعترضون حتى على النعمة إذا جاءت في صورة لا توافق ذاكرتهم القديمة، لقد أعطوا رزقاً من السماء، فيه كفاية وكرامة وخصوصية ربانية، لكنهم حنّوا إلى ما ألفوه في حياة الأرض الثقيلة. وهنا تبرز قاعدة نفسية خطيرة: أن النفس التي لم تُربَّ قد تستبدل الأدنى بالذي هو خير، لا لأن الأدنى أطيب في الحقيقة، بل لأنه أوفق لعاداتها القديمة.

وهذا ما صرّح به موسى حين قال: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}.

إنها ليست مسألة طعام فقط، بل مسألة ذوقٍ روحي وحضاري. هل تستطيع النفس أن ترتفع إلى ما يليق بعطايا الله، أم تظلّ أسيرة المألوف حتى لو كان أوطأ؟ كثيرٌ من الأمم لا تفشل فقط لأنها لا تعرف الحق، بل لأنها تعرفه ثم تميل إلى ما هو أدنى لأنه ألصق بعاداتها، وأسهل على طباعها، وأقلّ طلباً لعلو النفس.

سادساً: البقرة — لماذا كان التردد في التنفيذ سمةً متكررة؟

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}.

فكان المتوقع من الأمة التي ترى في نبيها نبياً أن تبادر، لكنهم قالوا: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا}.

ثم توالى الأسئلة: ما هي؟ ما لونها؟ ما عملها؟

هذه القصة ليست عن بقرة فحسب، بل عن الروح التي تتهرب من الامتثال بالتفاصيل.

إن بعض الناس لا يرفض الأمر صراحة، لكنه يلتف حوله بكثرة السؤال لا طلباً للحق، بل تأخيراً للتكليف، وإرهاقاً للامتثال، وربما أملاً في أن يخفّ أو يسقط أو يتعذر. ومن هنا فإن البقرة تكشف أن أزمة بني إسرائيل لم تكن في الجبن فقط، بل أيضاً في انحراف علاقتهم بالأمر الإلهي، بدل أن يكون الأصل: سمعنا وأطعنا، صار الأصل: نسأل حتى يثقل الأمر، ونناقش حتى يتعقّد، ونؤخر حتى يضيق المجال.

وهذا من أخطر ما يفتك بالجماعات المؤمنة: لا الرفض الصريح فقط، بل الثقافة النفسية التي تجعل الامتثال ثقيلًا ومؤجلاً ومشروطاً بإشباع فضولٍ أو مقاومة خفية في النفس. ولهذا كانت تلك القصة درساً في أن الطاعة إذا لم تُبنَ على التعظيم والثقة تحولت إلى تفاوضٍ مرهق مع الأوامر، يفقدها روحها.

سابعًا: موسى بين الشدة والرحمة — كيف استمرّ في حملهم؟

مع كل هذا، لم ينقطع موسى عن قومه انقطاع المتبرّم الذي يلقيهم لضعفهم ثم يمضي. نعم، كان يغضب، ويدعو، ويشكو إلى الله، ويشتدّ حين يجب الاشتداد، لكن الخط العام في حياته معهم هو الاستمرار في حملهم رغم تعثرهم. وهذه خصيصة نبوية عظيمة؛ لأن المربي الصادق لا يخلط بين كراهية الانحراف وكراهية المكلف الذي انحرف على وجهٍ يلقيه خارج كل محاولة إصلاح.

ولهذا كان موسى يعود دائماً إلى موضع العبودية، إلى الدعاء، وإلى رفع أمرهم إلى الله، وإلى التذكير بآياته، وإلى الاصطبار على كثافة ضعفهم. وهذا يعلمنا أن بناء الإنسان لا يتم بالصدام وحده، ولا باللين وحده، بل بمزيج مرهق من الصبر المتجدد، والحسم في موضعه، والرجوع الدائم إلى الله حتى لا يتحول أذى الناس إلى مرارة تقطعك عن رسالتك.

ثامناً: لماذا كان حمل الجماعة المؤمنة المتعثرة أصعب من مواجهة الطاغية؟

لأن الطاغية يُعرف حدّه، وتُعرف خصومته، أما الجماعة المتعثرة فهي بين بين: فيها أصل الإيمان، لكنها مثقلة بالأدواء؛ فيها قابلية للنجاة، لكنها بطيئة؛ فيها إمكانية التشكّل، لكنها تعاند.

ومن هنا فإن التعامل معها يحتاج نفساً طويلاً، لا انتصاراً سريعاً. تحتاج أن تعيش معها على حافة الأمل والألم معاً. أن ترى فيها ما يمكن أن تكونه، وما تتسبب به لك في الوقت نفسه من خذلان.

وهذا أعقد نفسيًا بكثير من مواجهة خصمٍ واضح. لأنك في الثانية تعرف أين تقف، أما في الأولى فأنت تقف داخل مشروع الإنقاذ نفسه، وتحمل أن يؤذيك من جنّت تبنيه، وأن تتكرر منه العثرات، وأن يبقى عليك ألا تياس من أصل إمكانه. وهذه منزلة لا يصبر عليها إلا نبيّ أو من ورث عن الأنبياء شيئًا من صدقهم.

تاسعًا: ماذا تعلّمنا هذه المرحلة عن سنن بناء الأمم؟

تعلّمنا أولاً أن النصر على الخارج لا يعني النضج في الداخل. وتعلّمنا ثانيًا أن الأجيال الخارجة من الاستضعاف تحتاج إلى زمنٍ أطول مما يظن المتحمسون.

وتعلّمنا ثالثًا أن كثرة الآيات لا تغني عن التربية اليومية الشاقة.

وتعلّمنا رابعًا أن بعض الوعود تتأخر لا لضعفٍ في الوعد، بل لعدم أهلية الحاملين له في لحظتهم الراهنة.

وتعلّمنا خامسًا أن القائد الرسالي يحتاج إلى أن يظل موصولًا بالله؛ لأن الجماعة، مهما كانت مؤمنة في أصلها، قد تستنزفه إلى حدٍّ لا يُطاق لولا مدد السماء.

عاشرًا: المعنى الأكبر — الرسالة لا تُقاس فقط بلحظات المجد، بل بقدرة صاحبها على الصبر في مساحات البطء والخذلان

إذا أردنا أن نصل إلى قلب هذا الفصل، فهذه هي الجملة الجامعة:

إن عظمة موسى لا تتجلى فقط في وقوفه أمام فرعون، بل كذلك في صبره على قومٍ كان عليهم أن يُعاد خلقهم إيمانياً وتربوياً من داخل تاريخٍ ثقيل من العبودية والاعتراض والتهيه.

فالأنبياء لا يصنعهم فقط بريق المواجهات الكبرى، بل أيضاً صبرهم في الأعمال البطيئة التي لا تصفق لها الدنيا: تعليم قومٍ متعثرين، وتحمل أسئلتهم السقيمة، وتكرار التذكير لهم، ومواجهة حنينهم إلى الأدنى، والانتظار حتى ينضج من بينهم من يصلح أن يحمل الوعد.

ومن هنا فإن موسى في هذا الفصل ليس فقط بطلاً تاريخياً، بل أباً تربوياً لأمةٍ صعبة المراس، وكل من أراد أن يبني إنساناً أو جماعة أو مشروعاً بعد خراب، فسيجد نفسه في مكان ما من هذه القصة: أمام قوم يريدون الثمرة دون الطريق، والأرض دون اقتحامها، والنعمة مع بقاء الذوق القديم، والطاعة مع بقاء النفس المراوغة. ولا نجاة من هذا كله إلا بنفسٍ موسويّ: شديد على الحق، صابر على الناس، متعلق بالله، غير منخدع بسرعة النتائج.

مفتاح الفصل الحادي عشر

يمكن تلخيص هذا الفصل في العبارة الآتية:

إسقاطُ فرعون قد يقع في مشهدٍ واحد، أمّا إخراجُ فرعون القديم من نفوس من عاشوا تحته فيحتاجُ إلى سنواتٍ من التيه والتربية والامتحان والصبر.

وبعد هذا المسار الطويل، تبرز الحاجة إلى السؤال الأكبر الذي يهّمنا نحن اليوم:

ما الذي يجعل موسى عليه السلام نموذجًا دائمًا للإنسان الرسالي، لا مجرد نبيٍّ في تاريخٍ مضى؟

وكيف نجتمع فيه نحن: في خوفه، واقتناره، وجرأته، وصبره، وحنانه، وغضبه للحق، وتعبه مع قومه، وثقته بربه؟

وهنا يبدأ فصلٌ جامع:

موسى عليه السلام بوصفه صيغةً كبرى لبناء الإنسان الذي يواجه الطغيان، ويقاوم الوثنية، ويحمل الجماعة، ويثبت في الغيب، ولا ينكسر حين يطول الطريق.

الفصل الثاني عشر

موسى عليه السلام بوصفه النَّمُودَجِ القرآنيّ للإنسانِ الرِّساليّ

كيف يجتمعُ في هذا النّبيِّ العظيمِ الخوفُ واليقينُ، والرِّقَّةُ والشَّدَّةُ،
والافتقارُ والقدرةُ، فيصيرُ صورةً للإنسانِ الذي يبنيه الله لحملِ الحقِّ؟

بعد هذا المسار الطويل في قصة موسى عليه السلام، لا يعود من الكفاية أن ننظر إليه على أنه نبيٌّ جليل من أنبياء الله فحسب، أو أن نقف عند حدود المشاهد العظيمة التي طبعت سيرته: اليمِّ، والطور، وفرعون، والسحرة، والبحر، والعجل، والخضر، والته، كل ذلك حق، وكل ذلك من جلال قصته، لكن القرآن لا يكرر موسى هذا التكرار المهيّب لمجرد أن يملأ الذاكرة الدينية بصورٍ مدهشة، بل لأنه يريد أن يضع بين يدي الإنسان بنيةً كاملةً لصناعة الشخص الرّسالي؛ الشخص الذي لا يكفيه أن يكون صالحًا في نفسه، بل يُراد له أن يحمل المعنى، ويواجه الباطل، ويصبر على الناس، ويُربّي بالابتلاء، ويُعاد تشكيله بالوحي، ثم يمضي في طريقٍ طويل من غير أن يفقد قلبه.

ومن هنا فإن موسى عليه السلام ليس مجرد بطلٍ في تاريخ النبوة، بل هو في البناء القرآني مدرسةً في تكوين الإنسان الكبير.

وإذا أردنا أن نفهم لماذا كان حضوره في القرآن بهذه الكثافة، فالجواب أن شخصيته تكاد تجمع أكثر العناصر التي يحتاجها كل مشروع نهوض: الضعف الذي لا يمنع الاصطفاء، والخوف الذي لا يقتل الشجاعة، واللسان الذي فيه عُقدة لكن الرسالة لا تتوقف عندها، والغضب الذي يشتعل للحق من

غير أن يصير هوّى، والصبر على قوم متعبين، والقدرة على أن يقول في قلب الاستحالة: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

ولهذا فإن التأمل في موسى لا ينبغي أن يقف عند السؤال: ماذا وقع له؟ بل ينبغي أن يرتفع إلى السؤال الأخصب: كيف بناه الله؟

لأن الذي يهمنّا نحن ليس مجرد معرفة الوقائع، بل فهم السنن التي تصنع الإنسان الذي يقدر أن يعيش للحق، لا أن يتعاطف معه فقط.

أولاً: موسى نبيّ الذين يبدوون من موضع الضعف لا من موضع الاكتمال

من أجمل ما في قصة موسى عليه السلام أنها لا تبدأ من رجلٍ كامل الصورة في أعين الناس، بل تبدأ من طفلٍ مهدد بالقتل، ومن أمٍ خائفة، ومن رضيعٍ يُلقى في اليمّ، ثم من شابٍ يفرّ خائفاً يترقب، ثم من غريبٍ وحيد يقول: {رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}.

هذه البداية وحدها عظيمة الأثر؛ لأنها تحرّر الإنسان من الوهم الذي يظن أن أهل الرسالة يُصاغون ابتداءً من مواضع القوة المكتملة والصورة الجاهزة. كلا، إن موسى يقول لكل من يشعر أن بدايته هشة، أو أن داخله خوفاً، أو أن طريقه بدأ من انكسار: هذا لا يمنع أن تكون موضع عناية الله، بل قد يكون هو نفسه مادة التكوين الأولى. فالله لا يستحيي أن يصنع من اليمّ طريق حفظ، ولا من المنفى مدرسة إعداد، ولا من الفقر باباً لتجريد النفس، ولا من الخوف معبراً إلى يقينٍ أصفى.

ومن هنا فإن موسى يهدم في وعينا عبادة البداية المثالية. لا يشترط الله على عبده أن يأتيه كاملاً حتى يصطفيه، بل قد يبدأ معه من مواضع نقصه وضعفه، ثم يعيد بناءه على عينه. وهذا يفتح في النفس باب رجاء عظيم: أن ما تظنه فيك اليوم موضع عجزٍ قاطع، قد يكون في قدر الله مدخلاً إلى تكوينٍ لم تتصوره.

ثانياً: موسى نبيُّ الافتقار الصادق لا الثقة الزائفة بالنفس

حين تلقى النداء، لم يقف متعالياً، ولم يتظاهر بالجاهزية الكاملة، بل قال: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي}.

هذه اللحظة وحدها تكفي لتمييز النموذج الموسوي عن كثير من النماذج النفسية المغلوطة التي يُفتتن بها الناس، إن موسى لا يدخل الرسالة ببطولة الاستعراض، بل يدخلها بصدق الافتقار، لا يخفي حاجته، ولا يتزين أمام الله بكمالٍ موهوم، ولا يجعل من موضع ضعفه عاراً يدفعه، بل يحوِّله إلى دعاء. وهذا من أعظم ما ينبغي أن يتعلمه كل من يريد أن يحمل خيراً: أن الصدق مع الله في موضع الحاجة أقرب إلى المدد من التظاهر بالقوة التي لا وجود لها.

ولذلك فإن موسى ليس نموذجاً للإنسان الذي يعتمد على نفسه، بل للإنسان الذي يعرف نفسه ثم يرفعها كلها إلى ربها، والفرق بين الاثنين بعيد، الأول قد يشتعل سريعاً ثم ينطفئ سريعاً، لأنه أوكل المعركة إلى قدرة محدودة، أما الثاني فيمضي وإن تعثر، لأنه لم يبين أمره على نفسه أصلاً، بل على ربه. ومن هنا كانت قوته الحقيقية نابعة من افتقاره، لا من نسيانه لفقره.

ثالثاً: موسى نبيُّ الشجاعة التي لا تنفي الخوف، بل تتجاوزه بالله

من أعظم ما يميز شخصية موسى في القرآن أنها لا تُرسم في صورة الشجاع الذي لا يخاف أبداً، بل في صورة الإنسان الذي يعرف الخوف، ويذوقه، ويعبّر عنه، ثم لا يستسلم له.

خاف وهو يخرج من مصر.

وخاف عند العصا أول مرة.

وقال مع هارون: {رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}.

وأوجس في نفسه خيفةً حين رأى سحر السحرة.

لكن القرآن لا يذكر هذه المواضع لينقص من مقامه، بل ليرفعه على نحوٍ أصدق؛ لأن الشجاعة الحقيقية ليست غياب الإحساس بالخطر، بل أن لا يكون الخطر آخر ما يحكمك، وموسى يعلمنا بهذا أن المؤمن لا يحتاج إلى أن يكذب على نفسه حتى يكون شجاعاً، ليس عليه أن يدّعي أنه لا يهاب شيئاً، بل عليه أن يعرف أن الخوف مادة بشرية، وأن اليقين هو الذي يضعها في حجمها الصحيح.

ولذلك كانت قمة هذه الشخصية في قوله: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

فهنا لا يتكلم إنسانٌ لم يعرف الخوف، بل إنسان عرفه ثم عرف ما هو أكبر منه. وهذا هو النموذج الذي نحتاجه اليوم: لا إنساناً متصلباً كاذباً على باطنه، بل إنساناً يعترف بارتجافه، ثم لا يسلم قياده له، لأن في قلبه ما هو أرسخ من الارتجاف.

رابعاً: موسى نبيّ المواجهة مع الطغيان من مركز التوحيد لا من مركز الأنا

موسى لا يقف أمام فرعون بصفته صاحب مشروع ذاتي يريد أن ينتزع السلطة من خصمه، ولا بصفته مجروحاً شخصياً يريد رد الاعتبار لسيرته، بل يقف من مركزٍ أسمى وأعلى: مركز التوحيد، ولهذا كانت القضية كلها عنده أن يعود العالم إلى موضعه الصحيح:

الله رب العالمين، وفرعون عبدٌ متورط في وهم الألوهية، والإنسان لا ينبغي أن يُستعبد لبشر.

ومن هنا فإن موسى يقدم نموذجاً نادراً في المواجهة: الخصومة عنده ليست مع الشخص لذاته، بل مع موضع الطغيان الذي يحتله في حياة الناس، ولهذا لم تتحول معركته إلى معركة كراهية شخصية عمياء، بل بقيت محكومة ببلاغ الرسالة، وإقامة الحجة، والقول اللين أولاً، ثم الثبات إذا استعلن الباطل بطغيانه.

وهذا من أعظم الدروس للإنسان الرسالي: أن لا يجعل خصومته مع الباطل امتداداً لجرح الذات أو حماسة النفس فقط، بل ردّاً للأمر إلى أصله: من الذي يُعبد؟ من الذي يُطاع؟ من الذي يملك حق التعالي؟ فإذا استقر هذا، صارت المواجهة أنقى، وأقلّ عرضةً لأن تبتلعها الأنا.

خامساً: موسى نبيّ الغيرة على التوحيد مع بقاء القلب حياً بالرحمة

في قصة العجل نرى وجهًا آخر من وجوهه: يغضب، ويلقي الألواح، ويشتد، ويواجه القوم، ويواجه السامري، ويحرق الوثن وينسفه. لكننا نراه أيضاً، بعد انكشاف بعض ملابسات المشهد، يقول: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي}.

وهنا تتجلى عبقرية هذا النموذج القرآني. إنه ليس متراحياً باسم الرحمة، ولا متوحشاً باسم الغيرة، بل يجمع بين الاثنين في ترتيب رباني دقيق، يغضب حين يُنتهك التوحيد، لأن القلب الحي لا يبرد عند هذا الموضع، لكنه لا يجعل غضبه صنماً جديداً يعبد، فإذا ظهر له موضع الرحمة عاد إليه، وإذا تبين له وجه العذر لم يستكبر عن الرجوع.

وهذا من أشرف ما يورثه موسى للإنسان الرسالي: أن الرحمة لا تعني تمييع الحق، والغيرة لا تعني انطفاء الرحمة، والناس كثيراً ما ينحرفون إلى أحد الطرفين: إما برودٌ يلبس ثوب الحكمة وهو في الحقيقة موت الحس بالحق، وإما اشتعالٌ يلبس ثوب النصره وهو في الحقيقة عجز عن إقامة العدل. أما موسى فيقف في الموضع الأصعب والأكمل: شديداً حيث يجب أن يشتد، عائداً إلى الرحمة حيث يجب أن يعود.

سادساً: موسى نبي الصبر على الجماعة المتعبة لا على الخصم فقط

قد يظن بعض الناس أن عظمة موسى كلها في وقوفه أمام فرعون، لكن المتأمل يدرك أن من أعظم بطولته أنه صبر على قومه.

صبر على خوفهم.

وعلى اعتراضهم.

وعلى حنينهم إلى الأدنى.

وعلى قولهم: {اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا}.

وعلى فتنة العجل.

وعلى تناقلهم عن الأرض المقدسة.

وعلى تردهم وكثرة أسئلتهم.

وهذا بابٌ من الصبر أشد في كثير من الأحيان من الصبر على الخصم الخارجي؛ لأنك في الثاني ترى عدوًا واضحًا، أما في الأول فتري أناسًا جنّت لتحملهم، ثم تجدهم هم أنفسهم بعض أثقال الطريق، ومع ذلك لا يتركهم. يغضب، يشكو إلى الله، يدعو عليهم في مواضع مخصوصة، يطلب الفرق، لكنه لا يتحول إلى إنسان يحتقر مهمة البناء نفسها لأن مادتها متعبة.

ومن هنا فإن موسى نموذجٌ لكل من يحمل مشروع إصلاح أو تربية أو بناء: أن الطريق ليس فقط أن تهزم الخصم، بل أن تحتل بطء من تبنيهم، وأن تعرف أن الناس لا يخرجون من آثار الخراب دفعةً واحدة، ومن لم يتربّ على هذا النفس، ظنّ أن كل تعثر خيانة نهائية، أو أن كل بطء سقوط لا رجاء فيه، أو أن الجماعة لا تستحق أن تُحمل إذا لم تكن مثالية من أول يوم.

سابعًا: موسى نبيّ الأدب مع العلم وحدود الفهم

رحلته إلى الخضر تُدخل في بنية شخصيته عنصرًا عظيمًا آخر: التواضع أمام ما لم يُعطه بعد من العلم.

إنه صاحب رسالة، ومع ذلك يقول: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي}.

ويتعلم، ويعترض، ثم يُعلّم لماذا لم يصبر.

وهذا البعد بالغ الأهمية؛ لأنه يحفظ الإنسان الرسالي من أن يتحول إلى شخصٍ مغلق يظن أن ما عنده كافٍ في كل باب.

إن موسى يعلمنا أن من علامات الصدق مع الله أن تبقى قابلاً لأن تتعلم، وأن تدرك أن في العالم أقداراً لا تُحاط من أول نظرة، وأنه ليس كل ما لا تفهمه باطلاً. وهذا لا يطفئ فيك الحزم الأخلاقي حيث يجب، لكنه يمنحك تواضعاً معرفياً يمنعك من ضيق الأفق، ومن السرعة في اتهام حكمة الله أو الحكم على الوقائع من ظاهرها الأول.

وهذا البعد هو الذي يجعل الشخصية الموسوية متوازنة بحق: شديدة في التوحيد، لكن غير متغترسة في العلم؛ حاسمة في الرسالة، لكن غير متألهة في الفهم.

ثامناً: موسى نبيّ العبور من الخاص إلى العام

في بدايات القصة نرى جرحاً شخصياً، وخوفاً شخصياً، وخروجاً شخصياً، وفقراً شخصياً. لكن هذه الذات لا تبقى أسيرة خصوصيتها، بل يُعاد تشكيلها حتى تصير وعاءاً للمعنى العام، وهذه نقطة عظيمة؛ لأن كثيرين يتوقفون عند آلامهم أو تجاربهم أو مظالمهم ويجعلونها نهاية القصة، أما موسى، فإن كل ما مرّ به تحوّل، بتدبير الله، إلى أهلية لحمل ما هو أكبر منه.

فالذي عرف الخوف صار أعرف بالمستضعفين.

والذي ذاق الغربة صار أصلح للسير الطويل.

والذي اعترف بضعفه صار أقدر على التعلق بربه.

والذي رأى القصر من الداخل صار أعرف بهشاشة الجبروت.

وهكذا فإن الله لم يبلغ التجارب السابقة، بل صهرها كلها في بناء الشخصية الرسالية.

وهذا من أجمل ما يقدمه موسى للإنسان المعاصر: أن آلامك ليست بالضرورة نهاية ذاتية مغلقة، بل قد تكون - إذا رباك الله بها - مقدمات لتوسيعك، حتى تخرج من حدود نفسك إلى حمل معنى أوسع.

تاسعاً: موسى نبيّ الذين يطول عليهم الطريق ولا يجدون رفاهية الانسحاب

في قصة موسى طولٌ واضح للطريق.

ليس ثمة إنجاز لحظي مكتمل.

هناك تكليف، ثم مواجهة، ثم صبر، ثم خروج، ثم بحر، ثم فتنة، ثم ألواح، ثم تيه، ثم تربية، ثم اعتراضات لا تنتهي.

كأن موسى يُربّى ويُستعمل في طريقٍ لا يُعطى فيه رفاهية الراحة الطويلة. وهذا مهم جداً؛ لأن بعض الناس يحبّون الحق ما دام مصحوباً بإحساس فوري بالنصر أو بالبهجة أو بالانسجام، أما إذا طال الطريق، وتكررت العثرات، وتبين أن البناء أبطأ مما ظنوا، دخلهم الوهن.

وموسى في هذا يورثنا نموذجاً للإنسان الذي لا يقيس صدق الطريق بسرعة ثماره. يمضي لأن الله أمر، ولأن الحقيقة تستحق، ولأن الرسالة ليست صفقة زمنية، بل عبودية، وهذا من أعلى ما يحتاج إليه أهل المعاني اليوم: ألا يجعلوا انكسارات المراحل دليلاً على بطلان الأصل، ولا بطء الثمرة مسوغاً لترك الغرس.

عاشراً: ما الذي يجعل موسى قريباً من الإنسان في كل عصر؟

يجعله قريباً لأنه ليس نبياً غريب التكوين عن الإنسان، بل نبىٌّ تظهر فيه إنسانية عالية جداً:

يخاف، يغضب، يحزن، يعتذر، يدعو، يطلب العون، يحتاج أخاه، يتعلم، يتألم من قومه، ثم ينهض من جديد.

وهذه الإنسانية لا تُنقصه، بل تقرّبه ممّا على الوجه الذي يجعلنا نرى أن النبوة ليست خروجاً عن البشرية، بل إعلاءٌ لها حين تهتدي بالله. ولهذا فإن موسى ليس مثلاً مستحيلاً للتأمل المجرد، بل مثلاً يمكن للإنسان أن يجد في ظلاله طريقاً: طريق أن تكون بشرياً كامل الشعور، لكنك لا تبقى أسير بشريتك المضطربة، بل يرفعك الله من داخلها إلى مقام الرسالة أو إلى نصيبك من ميراثها.

أحد عشر: موسى فينا اليوم — أين نلتقيه؟

نلتقيه حين نخاف من مهمة أكبر من طاقتنا، ثم نحتاج أن نقول: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}.

ونلتقيه حين نقف أمام طاغيةٍ ما، شخصاً كان أو نظاماً أو معنى متألّهاً، فنحتاج أن نستعيد: {إِنِّي مَعِيَ رَبِّي}.

ونلتقيه حين نرى من نعول عليهم أبطأ بكثير مما نتمنى، فنكاد نياس من البناء، ثم نتعلم أن حمل الناس بابٌ من أبواب الرسالة.

ونلتقيه حين نغضب للحق، فنحتاج أن يبقى غضبنا موصولاً بالله لا بأنفسنا.

ونلتقيه حين نرى أحداثًا لا نفهمها، فنحتاج أدب الخضر: أن فوق ما نعلمه علمًا.

ونلتقيه حين نشعر أن الطريق طويل، وأن البحر أمانًا، وأن المطاردة وراءنا، فلا يبقى إلا كلمة واحدة تردّ الروح إلى مركزها: {سَيَهْدِينِ}.

ولهذا فموسى ليس شخصية نقرأها ثم نغلق المصحف، بل هو قالب قرآني لصناعة الإنسان الذي يحتاجه كل زمان:

إنسان لا يعبد القوة، ولا يفتتن بالمحسوس الوثني، ولا يتوقف عند ضعفه الأول، ولا يستسلم لتعثر الجماعة، ولا يطغى بعلمه، ولا ييأس إذا تأخر الوعد في صورته الظاهرة.

الفكرة الكبرى في هذا الفصل

إذا أردنا أن نختصر الفصل كله في عبارة جامعة، فهي:

إن موسى عليه السلام هو النموذج القرآني الأوسع للإنسان الرسالي: إنسانٌ بناه الله بالابتلاء، وربطه بالتوحيد، ومرّنه على الخوف واليقين معًا، وجعله شديدًا على الطغيان، رحيماً في التربية، صادقاً في الافتقار، صابراً على بطء البناء، متواضعاً أمام ما لم يُعطه من العلم، ثابتاً في طريق طال حتى صار هو نفسه مدرسةً للثبات.

ولهذا فإن التأمل في موسى ليس قراءةً في نبيٍّ مضى فقط، بل قراءةً في كيفية صناعة الإنسان الذي لا تستهلكه الاستحالة، ولا يفسده النصر، ولا تكسره عيوب من يحملهم، ولا يضيق بالغيب إذا غاب عنه بعض سره.

مفتاح الفصل الثاني عشر

أوجز هذا الفصل في هذه الجملة:

موسى عليه السلام ليس فقط نبيّ حدثٍ عظيم، بل نبيُّ بناءٍ عظيم؛ ومن أراد أن يفهم كيف يصنع الله الإنسان الذي يحمل الحق في زمن الخوف والطغيان والتهيه، فليقرأ موسى بوصفه منهجَ تكوين، لا سيرةً تُحكى فقط.

وبعد هذا كله، لم يبق إلا أن نجمع الخيوط كلها في خاتمةٍ كبرى للكتاب:

ما الذي تقوله قصة موسى للإنسان اليوم؟

ما معنى أن يكون الطريق إلى الله، وإلى تحرير الإنسان، وإلى بناء الأمة، يمرّ بالخوف، والافتقار، والمواجهة، والعبور، والفتنة، والصبر، والتأديب، وعدم استعجال الثمرة؟

وما هي الرسالة النهائية التي يضعها القرآن في قلب القارئ حين يكثّر من عرض موسى عليه السلام؟

الخاتمة الكبرى

موسى عليه السلام: كيف تعلّمنا القرآن أن بناء الإنسان أعمق من إسقاط الطغيان

ومن اليمّ إلى الطور، ومن القصر إلى الصحراء، ومن البحر إلى التيه،
تتكشف هندسةُ الله في صناعة القلب الذي يحمل الحقّ ولا ينهار

بعد هذا المسير الطويل مع موسى عليه السلام، لا يعود السؤال: ماذا حدث في قصته؟ بل يصير السؤال الأصدق والأعمق: ماذا أراد الله أن يبني فينا بكثرة عرضها؟

لأن القرآن - كما رأينا - لا يكرر قصة موسى على هذا النحو المهيّب لمجرد الإخبار، ولا لمجرد العظة العامة، بل لأن موسى في البناء القرآني يكاد يكون الخارطة الكبرى لصناعة الإنسان حين يُراد له أن يحمل الحق في عالمٍ مختنق بالطغيان، مضطرب بالفتن، مثقل ببطء الجماعات، ومملوء بالمشاهد التي تختبر يقينه من جذوره.

ومن هنا فإن هذه القصة، إذا أخذت على حقيقتها، لا تترك القارئ كما كان؛ لأنها لا تعطيه فقط مشاهد مدهشة، بل تعيد تشكيل نظرته إلى نفسه، وإلى الطريق، وإلى معنى النصر، وإلى طبيعة البناء الإلهي للإنسان، إنها تُخرجه من السطح الذي يظن أن الدين سلسلة حلول سريعة ومشاهد انتصار لامعة،

إلى العمق الذي يرى أن الله يبني أوليائه بناءً طويلاً، دقيقاً، مرهقاً أحياناً، لكنه وحده البناء الذي يليق بحمل الرسالة.

أولاً: الله لا يصنع حملة الحق في البيئات المريحة فقط، بل في قلب الخوف نفسه:

أول ما تعلّمنا إياه قصة موسى أن العناية الإلهية لا تنتظر صفاء الظروف حتى تبدأ عملها.

موسى لم يولد في زمن طمأنينة، بل في زمن مذابح.

ولم ينشأ في بيت آمن وفق الصورة المتوقعة، بل في بيت الطاغية نفسه.

ولم يتشكّل بعيداً عن التهديد، بل من داخل تهديد محيط.

وكان القرآن يريد أن يقتلع من داخل المؤمن الوهم الذي يربط صناعة الرجال العظام بالظروف المثالية. كلا، إن الله إذا أراد عبداً لأمر عظيم، فقد يبتدئه من حيث يظن الناس أن كل شيء ضده، ثم ينسج من قلب الأخطار نفسها خيوط نجاته وتكوينه.

وهذا ليس خاصاً بموسى وحده، بل هو سنة ممدودة في حياة من يريد الله أن يزكيهم. إن بعض أكثر مراحل حياتك اضطراباً قد تكون، في علم الله، أكثرها كثافة في الإعداد، لكنك لا ترى ذلك لأنك تنتظر إلى الحدث من داخله، والله ينظر إليه من منتهاه.

ومن هنا فالمؤمن لا يستهين بالخوف الذي مرّ به، ولا يعبدّه، بل يتعلم أن يسأل: ماذا يصنع الله بي من خلال هذا كله؟

ثانيًا: الرسالة لا تبدأ من معرفة المهمة فقط، بل من معرفة الرب

في الطور لم يبدأ موسى بالتكليف العملي أولاً، بل بدأ بالنداء الأعظم: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}.

وهذا في الحقيقة هو قلب الكتاب كله، لا قلب فصل الطور فقط. لأن الإنسان لا يستطيع أن يحمل معنىً كبيراً في العالم ما لم يُحسم في داخله أولاً: من ربّه؟ من مركزه؟ من الذي يحدد له المعنى، ويضبط له الخوف، ويزن له الأشياء؟

إن كثيراً من الانهيارات التي تقع في طرق الإصلاح والعمل والكلمة تنشأ من خلل هنا: يدخل الناس إلى المهمات قبل أن يرسخوا في مقام العبودية. يريدون أن يغيّروا العالم قبل أن يستقرّ في قلوبهم من هو رب العالم. فيكثر الحماس، ثم يبرد. ويكثر الكلام، ثم يقلّ النور. ويكبر العمل في الظاهر، ثم يتآكله من الداخل ضعف الصلة بالله.

أما موسى، فقد بُني أولاً على هذا الأصل. ولذلك بقي قائماً في الميادين التي تهتّ الجبال؛ لأنه لم يدخلها من نفسه. والإنسان المعاصر أحوج ما يكون إلى هذا الدرس: أن لا يسأل فقط ماذا سأفعل؟ بل قبل ذلك: من الذي سأفعل له؟ وبأي قلب؟ ومن أي مركز؟

ثالثًا: الافتقار ليس ضدّ القوة، بل هو بابها الحقيقي

حين دعا موسى: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}

لم يكن يضعف، بل كان يؤسس قوته على أصلها الصحيح.

وحين طلب حلّ عقدة لسانه، لم يكن يعتذر عن الرسالة، بل كان يدخلها من باب الصدق.

وحين طلب أخاه هارون، لم يكن يتنازل عن مقامه، بل كان أفهم من أن يظن أن المشاريع العظيمة تُحمل وحدها دائماً.

وهنا تضعنا قصة موسى أمام تصحيح جذري لمفهوم القوة.

ليست القوة أن تتظاهر بالاكتماء.

وليست أن تُخفي مواضع حاجتك.

وليست أن تصنع لنفسك صورةً لا عيب فيها.

القوة الحقيقية أن تعرف مواضع فقرك بدقة، ثم ترفعها إلى الله، فيجعل من هذا الافتقار نفسه مدخل المدد.

ولهذا فإن الإنسان الذي يخدع نفسه بصورة الكمال قد يصمد لحظة، لكن الإنسان الذي يعرف فقره ويعتصم بالله هو الذي يثبت في الطريق الطويل.

رابعاً: أشدّ لحظات الإيمان ليست حين ترى الآية فقط، بل حين تُغلق

الأسباب كلها ثم تقول: {سَيَهْدِينِ}

مشهد البحر لا يعلمنا فقط أن الله قادر على خرق العادة، بل يعلمنا أن حقيقة الإيمان تظهر حين لا ترى الطريق، ومع ذلك لا تسقط في قلبك صورة العالم على أنها مغلفة نهائياً.

القوم قالوا: {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ}.

وهذا منطق الحسّ.

أما موسى فقال: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

وهذا منطق القلب الذي بُني على الوحي.

وهنا لا يَعْلَمُنا القرآن أن نهرب من الأسباب، بل يَعْلَمُنا أن لا نجعل الأسباب آخر ما نرى. لأن العالم في يد الله أوسع من كل صورة مغلقة تفرضها عليك لحظة الاختناق. والبحر قد يكون في ظاهر الحسّ نهاية الطريق، لكنه في تقدير الله قد يكون بدايته الحقيقية. ولهذا فالمؤمن الحقّ ليس هو الذي لا يرى الصعوبة، بل الذي لا يمنحها حقّ أن تكون الكلمة الأخيرة.

خامساً: إسقاط الطاغية أيسر أحياناً من إخراج الطاغية القديم من النفوس

لعل هذا من أعظم ما أراد هذا الكتاب أن يكشفه: أن معركة موسى لم تكن مع فرعون فقط، بل مع الإنسان الذي عاش طويلاً تحت فرعون.

لقد سقط الطاغية.

وانفلق البحر.

ورأى الناس ما رأوا.

ومع ذلك قالوا: {اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا}.

ثم فُتِنُوا بالعجل.

ثم تتأقلوا عن الأرض المقدسة.

ثم ضاقوا باليمن والسلوى.

ثم أثقلوا الأمر الإلهي بكثرة التردد والاعتراض.

وكل هذا يعلمنا أن تحرير الإنسان لا يكتمل بخروجه من قبضة الظالم الخارجي، بل لا بد أن يخرج أيضاً من قابلية الذل القديمة، ومن الحنين إلى الأدنى، ومن الرغبة في صنم بديل، ومن الخوف الذي صار جزءاً من بنية النفس. وهذه معركة أبطأ، وأصعب، وأشدّ احتياجاً إلى التربية من كل المواجهات الصاخبة مع الخارج.

ومن هنا فإن القرآن لا يغذي فينا سذاجةً ثوريةً تظن أن سقوط الظالم وحده كافٍ لبناء عالمٍ جديد. كلا. قد يسقط الظالم، وتبقى نفوسٌ كثيرة تبحث عن صورته في غيره، أو تبحث عن قيدٍ جديد يريحها من أعباء الحرية، ولهذا كان موسى نبيّ تحريرٍ مزدوج: تحريرٍ من فرعون، وتحريرٍ من فرعون الداخل.

سادساً: الوثنية لا تبدأ دائماً بعقيدةٍ صريحة، بل قد تبدأ بفراغٍ لم يملأه الله

هذه من أخطر حقائق القصة.

العجل لم يكن مجرد صناعة ذهبية، بل كان جواباً مزيفاً عن فراغٍ روحيّ.

الناس حين لا يمتلئون بالله كما ينبغي، يبحثون عمّا يملأ العين، أو يريح الحسّ، أو يقدم حضوراً سهلاً بدل الغيب الذي يحتاج إلى قلبٍ صاعد، ومن هنا فإن الوثنية ليست دائماً قصة أصنام حجرية، بل قد تكون كلّ ما يملأ الفراغ الذي كان ينبغي أن يملأه الله.

وهذا معنى شديد المعاصرة.

فكم من إنسان نجا من عبودية قديمة، ثم صنع لنفسه عجلًا جديدًا: صورة، أو رمزًا، أو زعيمًا، أو شهوة، أو فكرة، أو مجداً، أو جمهوراً، أو ذاتاً متضخمة. كل ذلك لأن الداخل لا يحتمل الفراغ، فإن لم يملأه الله ملأه غيره.

ومن هنا نفهم أن التوحيد ليس مسألة ذهنية فحسب، بل هو حراسة للفراغ الداخلي من أن يحتله شيء غير الله.

سابعاً: الرحمة بالشعوب المتعبة لا تعني تميع الحق، والغيرة على الحق لا تعني سحق الرحمة

في موسى رأينا هذا التوازن النادر.

يغضب للعجل، ويحرقه، وينسفه.

ويشتد على القوم.

ثم يعود فيدعو: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي}.

ويفرق بين السامري صانع الفتنة، وبين من افْتَتُوا، وبين هارون الذي اجتهد لئلا تتمزق الجماعة.

وهذا يعلمنا أن الحق لا يُحمل ببرودٍ يميته، ولا بعنفٍ أعمى يفسده، بل يُحمل بميزانٍ دقيق: شدة حين تُنتهك أصول الدين، ورحمة حين يكون موضعها، وبصيرة تُفرق بين من يستحق الحسم ومن يستحق الإنقاذ أو الإعذار أو مزيد

البيان. وهذه منزلة من أرقى منازل القيادة، لا يبلغها من عبد غضبه، ولا من عبد صورته الرحمة على حساب الحقيقة.

ثامناً: ليس كل ما لا نفهمه عبثاً، وليس كل كسرٍ خسارةً نهائية

رحلة الخضر جاءت في هذا الكتاب لتؤدي وظيفة جوهرية: أن لا يخرج القارئ من موسى وهو يظن أن الرسالة كلها مواجهة ظاهرة للطغيان والفتن فقط، بل أيضاً أدبٌ مع أقدار الله التي لا تنكشف طبقاتها كلها للعين البشرية من أول نظر.

السفينة خُرقت فحُفظت.

والغلام قُتل فأُبدل خيراً منه.

والجدار أُقيم فحُفظ كنز اليتيمين.

ليس المقصود من هذا أن يدّعي الإنسان فهم كل سرٍّ، بل أن يتربى على التواضع: أن فوق ما يعلم علماً، وأن بعض ما يتألم له الآن قد يكون في باطنه رحمت أو دفعات أو حراسات لم يؤذن له بمعرفتها، وهذا الأدب شديد الأهمية؛ لأنه يحمي القلب من التمرد على الله باسم العجز عن الفهم، ويمنحه من السكينة ما يجعله أقدر على الصبر، وألطف في الحكم على الحياة.

تاسعاً: الطريق إلى الأرض الموعودة يمرّ أحياناً بالتيه

من أكثر ما يهزّ التصورات السطحية أن الله، بعد كل ما سبق، لم يدخل القوم الأرض المقدسة فوراً، بل حرّمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض.

وهذا معناه أن الوعد لا يُعطى دائماً حين يُطلب، ولا حين تشتد الرغبة فيه، بل حين يتهياً الإنسان الذي يصلح له.

بعض الوعود لا يؤخرها ضعف الوعد، بل ضعف الوعاء.

وبعض الثمار لا يحجبها بخل السماء، بل عدم أهلية الأرض التي ستُنتبت فيها.

وهذا درس عظيم لكل من يحمل مشروعاً أو حلمًا أو دعوة: قد تتأخر الثمرة، لا لأن الطريق باطل، بل لأن الله يريد أن يعيد تشكيلك أو تشكيل الجيل أو الجماعة التي ستحملها. فالتيه قد يكون في بعض الأحيان مدرسة مؤلمة، لكنه يخلص الوعد من أن يقع في أيدي لم تتضج له بعد.

عاشراً: موسى يعلمنا أن عظمة الإنسان لا تُقاس بمشهد واحد، بل بقدرته على الثبات في الطريق الطويل

لو كانت عظمة موسى في البحر وحده لكان ذلك كافياً، لكنها ليست هناك فقط.

هي في الطور.

وفي الافتقار.

وفي مواجهة فرعون.

وفي الصبر على بني إسرائيل.

وفي الغضب للعجل.

وفي التواضع عند الخضر.

وفي حمل الجماعة المتعثرة.

وفي البقاء داخل الطريق مع كثافة الإحباطات وتكرار الخيبات من القوم.

وهنا تضعنا القصة أمام تعريف ناضج للعظمة: ليست أن تتوهج في لحظة عظيمة فقط، بل أن تبقى حيًا للحق حين يطول الطريق، ويتكرر الأذى، ويبطؤ البناء، ويستعصي عليك الناس، ولا تجد رفاهية الانسحاب، هذه هي البطولة التي يريد القرآن أن يبينها: بطولة العبد الذي لا يغترّ بالمشهد الكبير وحده، ولا يتحطم إذا دخل بعده زمن الأعمال البطيئة والتربية الشاقة.

أحد عشر: ماذا تقول قصة موسى للإنسان اليوم؟

تقول له: لا تحتقر بدايتك إن كانت ضعيفة؛ فقد يبدأ الله بها أعظم ما يكون.

وتقول له: لا تدخل المهمة قبل أن تعرف ربك حق المعرفة.

وتقول له: لا تتظاهر بالقوة، بل افتقر إلى الله تُعطَ القوة.

وتقول له: لا تجعل الاستحالة الحسية آخر كلمة في وعيك.

وتقول له: لا تظن أن إسقاط الخارج يكفي إذا بقي الخراب القديم في الداخل.

وتقول له: املأ قلبك بالله حتى لا تصنع عجلًا جديدًا حين يغيب عنك بعض ما ألفت.

وتقول له: كن شديدًا على الحق، لكن لا تطفئ الرحمة.

وتقول له: تواضع للعلم، واصبر حيث لم تُحِط خبرًا.

وتقول له: لا تستعجل الثمرة إن كان الله ما يزال يبني الوعاء.

وتقول له في النهاية: إن الإنسان لا يصير أهلًا للحق لأنه يتكلم عنه فقط، بل لأنه يُصنع على عين الله.

اثنا عشر: الجملة التي يلخص بها هذا الكتاب كله

إذا أردت أن أضع هذه الرحلة كلها في جملة واحدة، فإني أقول:

إن قصة موسى عليه السلام هي إعلان قرآني أن بناء الإنسان أعمق من إسقاط الطغيان، وأن الله لا يحرر عباده من فرعون الخارج فقط، بل يربّيهم طويلاً حتى يتحرروا من فرعون الخوف، وفرعون العادة، وفرعون الوثنية، وفرعون العجلة، وفرعون الجهل بسننه، وحتى يصيروا أهلًا لأن يحملوا الحق من غير أن يسقطوا به أو يفرّوا منه أو يبدلوه بعجلٍ جديد.

وهذا هو السرّ في أن موسى ليس قصة ماضية، بل مرآة دائمة.

كل مؤمن له فرعونه.

وله بحر.

وله طور.

وله عجله الذي قد يُفْتَن به إن لم يحرس قلبه.

وله خضره الذي يعلمه أن فوق علمه علمًا.

وله تبيهه الذي يؤخره حتى ينضج.

وله قومه الذين يتعب بهم إن كان حامل معنى.

وله كلمته التي لا غنى له عنها في لحظة الاختناق: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

الخاتمة الأخيرة

وهكذا يخرج القارئ من موسى عليه السلام لا وهو معجبٌ بنبيٍّ عظيمٍ فقط، بل وهو مدعوٌّ إلى أن يعيد النظر في نفسه كلها:

في خوفه، وفي استعجاله، وفي حاجته إلى الشرح، وفي فهمه للنصر، وفي علاقته بالناس، وفي صبره على البناء البطيء، وفي قابليته لصناعة عجله الخاص إذا فرغ من الله، وفي تواضعه لما لا يعلم.

فإن فعل ذلك، لم تعد قصة موسى قصةً تُقرأ، بل صارت منهجاً يُعاش، وصارت الآيات التي مرت عليه محطاتٍ في إعادة تشكيله هو نفسه. وهذا - في ظني - هو المقصود الأجمل من هذا الكتاب كله: ألا نخرج من موسى ونحن نملك معلوماتٍ أكثر عنه فقط، بل أن نخرج ونحن نعرف أكثر كيف يريد الله للإنسان أن يكون.

تم بحمد الله وتوفيقه